اقرأ

# توفيق الحكيم الساخر





تصدر أول كل شهر

[٤٧٦] يونية - ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور

# توفيق الحكيم الساخر



دار المعارف

تصميم الغلاف : **منى جامع**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

# حمارى ومنظرى

قال لى حمارى وهو يتأمل جنديًا شابًّا ، مر بنا فى طريقه ولا ريب إلى ساحة القتال ، ولفت أنظارنا ببهاء طلعته :

— انظر إلى هذا الجندى الفاتن ؟.. ماذا عليه بربك لو أعطاك رأسه تفعل به أنت هنا الأفاعيل ، وأخذ رأسك القبيح هذا ليموت به فى الميدان الغربى ؟..

فلم أرد عليه . . فتلك مسألة طالما فكرت فيها من قبل بينى وبين نفسى . . نعم . . طالما ندبت سوء حظى ونصيبى وبكيت واشتكيت ، لأن السماء خلقتنى هكذا شكلاً وموضوعاً . . ولكنى فكرت وتأملت ، وقلت عن نفسى ما قال الفيلسوف «باسكال» عن «كليوباترا» :

«لو أن الله جعل لى أنفًا أصغر من أنفى هذا لتغير وجه حياتى كله أجمل تغيير . ولكن الله ضن على مثلى بهذه المنحة الصغيرة وهى لا تكلفه كثيرًا

ولا قليلاً . . » .

وكنت كلما ذهبت إلى حلاق وأبصرت إلى جانبى رجلاً بديع القسمات أخاطب السماء قائلاً :

لكأنك يا ربى قبل أن تخلق هؤلاء المحظوظين قد وضعت بين أيديهم صناديق مملوءة بمختلف أصناف الأنوف والشفاه والآذان والعيون ، ليختاروا من بينها ما لذ لهم وطاب . . أما أنا وأمثالى فينبذ إليهم ما بقى بعد ذلك فى قعر الصناديق من «كناسة » أيدى أصحاب الحظوة والنصيب . . قلت ذلك كثيرًا ورددته طويلاً . . وإذا أنا أسمع ذات ليلة صوت ملاك من الملائكة يهبط علىّ وأنا بمفردى فى حجرتى صائحًا بى :

– « فضحتنا . . السماء ضجت من تشنيعك وتشهيرك ! . . » .

– عفوًا يا سيدنا الملاك .

– اسمع يا أستاذ . . لقد جئت إليك لأحقق كل طلباتك ، حتى لا تتهمنا بعد ذلك بالتحيز أو المحسوبية أو غير ذلك من الصفات غير اللائقة . . ما رأيك لو خلعنا عنك هذا الشكل الذى لا يعجبك ، وأعطيناك غيره كما تشاء وتحب ؟ ! . .

– وكيف يحدث ذلك ؟.

– تموت ثم تولد مرة أخرى فى ثوب جديد . . وإن لك علينا لعهدًا وميثاقًا أن نفتح بين يديك كل تلك الصناديق التى تتحدث عنها ، لتختار أنت أولاً ما يحلو لك قبل كافة مواليد العالم . .

– ومن يضمن لى إذا مت أن أولد من جديد ؟..

– عجبًا . . أوتشك فى وعد أهل السماء ! . .

– كلا . . ولكن هل أنت تفعل هذا بإذن ..؟

– بالطبع . . وهل يحدث شىء بغير إذن المولى العظيم ! . .

– إن الله حقًّا لغفور رحيم . وافرحتاه . . إنه سيعطيني كل ما أريد . .

– كل ما تريد وكل ما تتخير لنفسك .

– هذا شيء حميل . . اجلس إذن يا سيدنا الملاك ولنتحدث قليلاً . ولا بأس من أن تشير عليّ بما ينبغي أن أختار . . فأنا أخشى أن تبهر عيني عند فتح الصناديق ، فلا أستطيع أن أميز الجيد من الرديء . إني أذكر سوء اختياري دائماً لألوان «الكرافتات» و«الجوارب» . . وحيرتي كلما فتح لي صندوق منها لانتخاب أحسنها . . وإني لأغرق في ترددي مرة ثانية إلى أن ينتهي بي الأمر إلى تخير أقبحها وأرذلها دون أن أدري أو أنتبه . .

– وتريد مرة أخرى أن تحملنا مسئولية اختيار أنفك وفمك !!؟.. لا . . لا يا سيدي الأستاذ . . أو نسيت أنك منذ قليل كنت حضرتك تطعن في ذوقنا ، وتتهمنا في نوايانا !!؟

– حاشا لله . . أنا لم أطعن ولم أتهم . . إنما كنت أتظلم وأستعطف . ولقد تفضلتم فاستمعتم إلى ظلامتي ، فأكمل فضلك معي وامكث نتبادل أطراف الحديث .

– مكثت . . تكلم . . إني مصغ إليك أيها الأستاذ !..

– أيها الملاك . . ما رأيك في أن أطلب أن يكون لي شكل «كلارك جيبل» ..؟

– بديع جداً .

– أليس لك اعتراض . . فلنتفق من الآن . . والشرط نور .

– موافق جداً – بل أكثر من ذلك . . أحب أن ألفت نظرك إلى أن من حقك – بناءً على اتفاقنا هذا – أن تطلب ما شئت ، لا من حيث الشكل وحده ، بل الأخلاق أيضاً . . ثم الثروة كذلك . .

— عجبًا . . الأخلاق والثروة ؟.

— ولم لا . . ؟

— إذن فأنا أطلب أن تكون لى ثروة « روكفلر » .

— معقول جدًا . .

— أليس كذلك ؟ .

— نعم . . وأخلاق من ؟! .

— آه . . حقًا . . دعنى أفكر قليلاً . . أظن أنه لا يوجد خير من أخلاق «غاندى » . . نعم . . إنى أطلب أن تكون لى أيضًا أخلاق غاندى .

— عظيم جدًا . . شكل «كلارك جيبل» وأخلاق «غاندى» وثروة « روكفلر» . .

— ألا تظن أن هذا كثير ؟.. إنى أبالغ بلا شك . . إنها قلة ذوق منى . . إنى أستغل عطف السماء أكثر من اللازم .

— كلا يا أستاذ . . مطلقًا . . لا شىء بكثير على قدرة الله . . إن الله إذا شاء أعطى بغير حساب . .

— اللهم شكرًا . . أنا الذى طالما تمنى أن يلغى الحساب من الوجود ساعة تمتد يد الله نحوى بالعطاء . . ها هى ذى الساعة أقبلت . .

— ألك طلبات أخرى ؟..

— لا يا سيدى الملاك . . أوبقى شىء يُطلب : شكل «كلارك جيبل» ، وثروة «روكفلر» ، وأخلاق «غاندى» . . أأريد أن أنهب الكون ؟!.. يا للمعجزة . . إنى سأغدو أعجوبة ولا شك فوق هذه الأرض !.. إنى سأصنع العجب العجاب .

— سوف نرى . .

– وهل هناك شك فى أنى سأملك من الوسائل ما أصنع به الأعاجيب ؟..

– أى نوع من الأعاجيب ؟.. إننا لم نتفق بعد على اسمك وعملك ؟..

– اسمى وعملى ؟

– بالطبع .. يجب أن يكون لك اسم وعمل فى حياتك الجديدة .

– حقًّا .. هذا ما نسيت أن أفكر فيه ..

– ثم يجب أن تكون لك جنسية !.. أمثل «جيبل» و «روكفلر» أمريكيًّا ، أم مثل «غاندى» هنديًّا هندوسيًّا .. أم ..

– هنديًّا هندوسيًّا .. ما هذا الكلام أيها الملاك .. ومتى أتعلم هذه اللغة ..

لا .. لا يا سيدى .. بسط كل هذه الإجراءات ، واتركنى كما أنا مصريًّا ، وليكن اسمى «توفيق الحكيم» كما أكون الآن ..

– لا بأس فى ذلك ولا مانع لدينا مطلقًا .. وعملك ؟.. هل تريد أيضًا أن تبقى كاتبًا كما أنت ..

– طبعًا .. طبعًا .. وهل يمكن أن يكون «توفيق الحكيم» شيئًا آخر فى الحياة غير ذلك .

– آه يا سيدى الأستاذ .. سوف نرى .. سوف نرى ..

– نرى ماذا ؟.. إنك تخيفنى بهذه اللهجة المبطنة بالشك والريبة .

– لا تخف .. إنى ما جئت لأخيفك .. إنما أنا هنا الآن لأنيلك ما تشتهى .. ولكنك أردت أن نتجاذب أطراف الحديث ، وقد جرنا الكلام إلى ما يعنينى وإلى ما لا يعنينى .. وإنى لأرى الفضول يدفعنى إلى أن أوجه نظرك إلى أمر .. هل تسمح ؟!..

– العفو يا سيدى الملاك .. تفضل .. وجه نظرى إلى حيث شئت .

– هل تتصور ما سوف يحدث غداً يا «توفيق الحكيم» وقد أصبح لك شكل

«كلارك جيبل» وتصوف «غاندى» وثروة «روكفلر» ؟!

– ماذا سيحدث ؟

– تخيل تخيل يا سيدى الروائى

– تخيل أنت يا سيدى الملاك .

– إذا سمحت لى ، فإنى أقول لك : إن الذى سيحدث هو أن شكلك الجديد الجميل سوف يجعل كل الجميلات يرتمين على أقدامك .

– الله يسمع منك بجاه النبى ! !

– ولكنك . . حيث أن لك تصوف «غاندى» فإنك لن تلتفت إليهن وستقنع من الحياة كلها بتلك «العنزة» وتحلب من لبنها وتشرب .

– وهل هذا معقول !..

– وعند ذاك تنصرف عنك الجميلات يائسات ساخطات ، متسائلات عن كنه ذلك المخلوق الغافل عن جماله ، القانع بعنزته وصومعته وخياله .

– معهن حق . . هذا مخلوق يستحق الشنق !

– هذا هو الجمال مع التصوف .

– لا يا سيدى . . احذف التصوف من فضلك .

– إذن فليكن التشكل «كلارك جيبل» مع أخلاق من ؟.

– أخلاق أنا تكفى . .

– أخلاقك كما هى الآن !؟.. عظيم . . إذن فلتكن أنت بالشكل الجميل وثروة «روكفلر» . . أتدرى ماذا سيحدث ؟.. سيحيط بك جميلات الأرض حبًّا فى صورتك وطمعًا فى ثروتك .

– أهلا وسهلا !.. وأنا لا أتمنى على الله ولا عليك أكثر من ذلك .

– ولكن . . بما أنك تريد أن تبقى كاتبًا روائيًا . . فإنى أظن من الصعب

عليك أن تجد وقتًا تتخلص فيه من أذرع النساء . لتجلس أمام الحبر والورق . . وإذا وجدت الوقت فلن تجد الدافع الذى يحفزك إلى العمل . . أين فى تاريخ الأدب والفن ذلك المليونير الوارث الذى يحنى ظهره ليكتب أو يخلق . . إن لذة الفنان هى فى أن ينتج ويقوم نتاجه بعد ذلك بالذهب أو بالمجد . . هو الذى يوجد المال بفنه . . أما إذا وجد المال قبل ذلك عن غير طريق فنه ، فإن نصف لذة الخلق الفنى تضيع . . ونصف الحافز على الإنتاج يذهب . . المليونير الذى أصبح فنانًا عظيمًا غير موجود . ولكن الموجود هو الفنان الذى قد يستطيع بفنه أن يكون مليونيرًا . .

– آه يا سيدى الملاك . . إذن لا ضرورة لثروة «روكفلر» ؟! . .

– فكر فى الأمر يا سيدى الأستاذ . . ربما كنت غير مصيب . . فشئون الفن تعرفها أنت أكثر منى . . إنى – كما تعلم – لست فنانًا . . أنا ملاك فقط .

– العفو العفو . . إن رأيك فى الحقيقة فيه شىء من الصواب . إننا لا ننتج فى الفن من أجل الثروة . أو على الأقل ليس من أجلها وحدها . .ومع ذلك فما ألذ طعم المال الذى يأتى ثمرة الفن . حقًّا . . إنى لأحس هذا الشعور دائمًا . . ما أتفه المال الذى يأتينى من غير طريق فنى . .

– أرأيت اللذة التى تحرم نفسك إياها بطلبك ثروة تأتيك من السماء ! . .

– نعم . . نعم . . احذف ثروة «روكفلر» .

– إذن فليكن لك فقط ما طلبت : شكل «كلارك جيبل»

– وهذا يكفينى ، ولا أطلب غيره . .

– عظيم . . ستبقى أنت كما أنت ، ولكن فى صورة جميلة ، وطبيعى أنك ستكون محبوبًا من الحسان . . هذا لا مفر لك منه ، ولا حيلة لنا فيه .

– وما الضرر يا سيدى أعزك الله ؟!

– لا ضرر . . ولكن . .

– ولكن ماذا . . صارحني بربك وأرحني . .

– فنك ؟ . . أيبقى هو فنك أو يصبح فن رجل آخر . إنك تعلم أكثر مني أن الفن يتغير بتغير طبيعة القلب الذى يخرج منه . . إنه كالماء الذى ينبثق من الينابيع . . فهو حار إذا نبع من بقعة الزلازل والبراكين ، بارد إذا صعد من أرض الأمن والاطمئنان .

– لم أفهم بعد . .

– لعل الأصح أنك لا تريد أن تفهم . . لكن لا بأس من أن أوضح لك ، ولن آتى بكلام من عندى . . حسبي أن أسوق إليك كلمة أنت نفسك قائلها وواضعها على صدر كتاب من كتبك : «إن صاحب الحياة السعيدة لا يكتبها . . بل يحياها» .

– تريد أن تقول إنه إذا كان لى شكل «كلارك جيبل» وحياته السعيدة فإنى سأحياها ولن أكتبها .

– لست أنا الذى قالها ، بل أنت الذى قلتها ونشرتها .

– ومن أدراك أنى لم أخطئ ولم أغلط . . أنا رجل كثير السهو والغلط . . لماذا لا أجرب ، دعني أجرب يا سيدى العزيز . . ماذا يضيرنا لو جربنا . . إن التجربة وحدها هى التى تلهمنى وتهدينى . . ولقد عزمت على أن أجرب بنفسى كل شىء ، وأن أهبط وأرتفع ، وأنهض وأقع فى أجواء الحياة والمجتمع ، فامنحنى شكل «جيبل» ولا تحرمنى هذا الطلب الوحيد عافاك الله وأبقاك .

– لا تخدع نفسك . . أو اخدعها وأنا غير مسئول عن النتيجة . . خذها منى كلمة صادقة : إذا تغير شكلك تغير تفكيرك وتغيرت نظرتك إلى المجتمع والحياة ، وأصبحت شخصًا لا علاقة له بتوفيق الحكيم ، لا من بعيد ولا من قريب . .

- أحسن . . وأنا لا أريد أن تكون لى بحضرته أى علاقة .

- هذا شيء آخر . . ولكننا اتفقنا من مبدأ الأمر على أن تحتفظ باسمك وشخصك وعملك .

- وبعد ؟

- وبعد فإن الله لم يترك شيئًا للمصادفة . . إنه خلقك هكذا لتنتج فنًّا هكذا . . فإذا تغير أنفك تغير فنك ! .

- وبالاختصار . . أيها الملاك . .

- بالاختصار أيها الأستاذ . . ليلتك سعيدة . وأحسن ظنك بحكمة ربك الذى لم يخلق شعرة من شعر رءوسكم عبثًا .

وهكذا انتهى الحوار بينى وبين الملاك المفضال . وأنا كما أنا لم أنل شيئًا ولم أربح جديدًا . . وتحرك الملاك ليرتفع من حجرتى عائدًا إلى السماء . . فصحت به مستوقفًا :

- لحظة واحدة من فضلك . يظهر أن الحائل بينى وبين كل خير هو هذا الفن المزعوم . . أنا يا سيدى متنازل عنه .

- تتنازل عنه من أجل شكل جميل ؟! . .

- المسألة فى نظرى تستحق المقايضة .

- أنت وما تريد . . ولكنها أنانية منك أن تضحى بعملك الذى تؤدى به خدمة عامة فى سبيل صفة شخصية تنال بها متعة خاصه .

- أنانية . أنانية أنا راض بهذا الوصف . . لكن غيرونى . . أنا طالب التغيير . . أنا حر فى نفسى ولا أحد شريكى .

- لك شريك . . هو وطنك . . فإذا وافق أهل بلادك على أن يؤخذ من بينهم « فنان » ليستبدل به « دون جوان » فلا مانع لدينا من إجراء عملية

الاستبدال .

وهكذا عقد لى الإجراءات بدل تبسيطها . . وارتفع سريعًا قبل أن ينتظر منى جوابًا . . وتركنى وحدى كما كنت أمام ورق وحبرى وحمارى . لم أتقدم ولم أتأخر . .

(حمارى قال لى ١٩٤٥)

# حماري والنفاق

قال لي حماري . وقد رآني أتهيأ للسمر ذلك الصيف إلى رأس البر : أتذهب وحدك ؟.

فخجلت منه ودعوته ، لأن الوفاء يأبى أن أتركه يصلى حر القاهرة وأمضى أنا بدونه إلى المصايف . . ولقد نزل مثلى ضيفاً معززاً مكرماً على « عشة » أحد الأصدقاء ، وأفرد له مكان بجوارى . . وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا . . ويذهب معنا كل صباح إلى « خيمتنا » التي نصبت على الشاطئ ، وينظر كما ننظر إلى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات ، قد وضعت فيها محركات تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال . . وكان يحلو لى أن أغرق صامتاً فى مقعد بحرى طويل مريح ، وكنت قد أوصيت حمارى بالسكوت ؟ فنحن هنا للراحة لا للكلام . . وقد أذعن لرجائى فلم ينبس بحرف . .

إلى أن جاء ذات يوم إلى «البلاج» رجل من معارفنا . له جسم قد ترهل . وكرش قد برز كأنه «فنطاس» غار . وهو يرتدى «الشورت» مع قميص قصير الأكمام فقلت له :

– يا لك من رشيق ! . يا لها من رشاقة !

وهنا لم يتمالك الحمار ، وهمس قائلاً لى :

– أحقًّا تراه كذلك ؟.

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطًا :

– طبعًا. أراه كذلك . . ولماذا لا أراه كذلك ؟!

فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

– كيف لا أرى أنا ما تراه أنت !؟..

فقلت له مغيظًا :

– لأنك أنت حمار .

– فأجابنى هامسًا :

– ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق ؟!..

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بصديقه ، وقد اطمأن إلى حسن منظره . وسارا معًا على الشاطئ ، بعد أن يئسا من ذهابى معهما . . فأنا لا أحب المشى . وانفردت بحمارى أصيح فيه :

– أنا منافق ؟!.

– مهلاً . . مهلاً أنا لم أقصد إهانتك . .

– افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقًا ، ولكنها مجاملة

– مفهوم . إنها مجاملة . . والمجاملة هى النفاق الصغير . . هى كالجحش بالنسبة للحمار . . ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الإطلاق . . إنى تأملت

نفسى ذات يوم وتأملتك وقلت : ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟ ! .. نحن نأكل الفول ، وأنتم تأكلون الفول . . وإذا كنا نحن نحبه ممزوجاً بالتبن أو النخالة ، وأنتم تحبونه بالزيت أو الزبدة . . فتلك مسألة مزاج . . ولا يجب أن نسميه فرقاً جوهرياً . . إنما الفرق الأساسى حقاً بيننا وبينكم : هو أنكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه . . وقد عللت نفسى ومنيتها بحلم جميل ، هو أن تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوماً وأتوسل إليك أن تعلمنى النفاق .

– عجباً ! .. من علمك هذا الأسلوب الهازئ ؟ ! .

– إنى لست أهزأ . . إنى أقول الجد . . تلك عقيدتى :

لو أمكننى تعلم النفاق وإدخاله فى فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم . . إنى مؤمن كل الإيمان بهذا المبدأ . . وإنى أعمل سراً على تنفيذه منذ زمن . . فلا تقف فى وجه مطامعى وأمانى . . خذ منى كل شىء ، واعطنى النفاق ! .

– ماذا جرى لك ؟. هل جننت ؟.. هل أثر فى رأسك هواء البحر النقى وطعام مضيفنا الشهى ؟ ! .

– رأسى بخير . . ولقد سألتك شيئاً سوف يحدث انقلاباً فى تاريخ بنى جنسى . ولكنك تبخل به علينا وتضن فلن ألح أو أثقل عليك بعد الآن فى الطلب !

– أمرك غريب . . أبخل عليك بماذا ؟.. أهو شىء عزيز نفيس أستكثره على مثلك ؟.. هذه أول مرة أسمع فيها أن للنفاق قيمة يحرص عليها الإنسان !

– أما أنا فقد سمعت أن النفاق له قيمة كبرى فى الأسواق العالمية ، وأن أجود أنواعه يوجد فى مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن .

– يظهر أنك استقيت معلوماتك من مصادر خبيرة .

– لقد قيل لى : إن النفاق الطويل التيلة . .

ماذا تقول ؟!.

– نعم إنه كالقطن . . ألا ترى هذا ؟!.. ولعل السبب فى تفوقه وتميزه بطول تيلته . إنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع . فمثلاً من الجائز أن يعتنق الفرد رأيًا مخالفًا للجماعة . فتنهض ضده الجماعة فيقبع فى داره صامتًا . . وهذا ما يحدث فى كل بلد آخر أما هنا فيحدث غير ذلك . . فلقد أخبرونى أن أفرادًا قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالإلحاد ، فلم يكتفوا بالصمت ، بل قاموا فى اليوم التالى يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمائم الخضر . . وأن آخرين عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة ، بل راحوا يتزعمون حركات الحض على الورع . ونساء يرتكبن فى السر الفجور ، وينادين فى العلن بالفضيلة . . وسياسيين قد خلق الله لكل منهم وجهًا واحدًا ، فصنعوا هم لأنفسهم وجوهًا عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ . . وأسر أو عائلات توزع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب . كما يوزع الله بين عباده القسم والأرزاق . ومرءوسين يداهنون الرؤساء على حساب الدولة . ورؤساء يراءون الشعب على حساب المصلحة ، وسيدات يردن العبث واللهو ويقلن للناس إنه البر والخير . وأهل دين يملئون الصحف ضجيجًا حول الأخلاق ، ويدقون طبلاً ضد الرذيلة ، وما يقصدون فى سر يرتهم غير التظاهر والإعلان . . ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة ، ويستثنون أنفسهم وذويهم .

هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد . . أما الطرف الثانى وهو المجتمع فله نفاقه أيضًا :

فقد بلغنى فى ذلك أنه ما من مجتمع فى غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز !.. وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم ، والشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من

هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضًا ، ويستقبله استقبال الأمجاد الأبطال ، بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا المليونير . والماضي المزري لذاك السياسي ، فلا يمنعه ذلك من حملهما على الأعناق .

هكذا يرائي المجتمع الفرد ، ويداهن الفرد المجتمع . . ولا يدري أحد أيهما مصدر النفاق . . لذلك قيل : إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أي الطرفين مصدر الآخر . . وكل الذي نعرفه أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة . . وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة . . فما قولك في هذا ؟ . وهل تراني ألممت بالموضوع ؟.

– إني أراك بحرًا فياضًا ، وأدهش كيف تسألني أن أعلمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟! .

– لا موجب للدهشة ، فأنت تعرف أن العلم النظري شيء ووسائل التنفيذ شيء آخر . . فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية في أي بلد ؟! . وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم ، ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله في مجتمع بني جنسي ! .

– لست أرى في الأمر صعوبة . . إنه في غاية البساطة . . أنا مثلاً صاحبك الذي تخافه وتهابه ، ولك عنده مصالح ومآرب . انظر إلى وجهي : ألا تراه جميل الصورة ؟..

– أبدًا .

– لا تنظر بعين رأسك ، انظر بعين مصلحتك !..

– لست أعرف لي سوى العين التي في رأسي .

– هذه العين افقأها إذا كنت تريد أن تتعلم النفاق !..

– أفقأ عيني وأصير أعمى ؟!..

- هذا هو الشرط .
- وبماذا أرى الأشياء ؟..
- بعينك الأخرى : عين مآربك .
- إذن لو أردت إدخال النفاق فى مجتمع بنى جنسى ، ينبغى لى أن آمر جميع الحمير أن تفقأ عيونها التى فى رءوسها ؟ .
- فى الحال .
- وأن تحول مجتمعها إلى مجتمع من العميان ؟!
- بالضبط .
- وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟..
- ولم لا ؟.. إذا كنا نحن قد قبلناه . .
- اسمح لى أن أقول لك .
- صه . . أعرف ما ستقول ، ولا داعى للإهانة ! .

وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدين ، فأومأت إلى حمارى بالصمت . وغمزت له بعين رأسى وأنا أقول مشيرًا إلى صاحبنا المترهل منشدًا :

أهلا وسهلا بالرشاقة كلها
بالشورت والأكمام فوق الكرش !

(حمارى قال لى ١٩٤٥)

# لقائى بحمارى

عرفته فى يوم من أيام الصيف الماضى . فى قلب القاهرة . وفى شارع من أفخم شوارعها . كنت أسير فى ذلك الصباح إلى حانوت حلاقى . وكان الهواء حارًا ممزوجًا بنسيم لطيف وكان صدرى منشرحًا ، فقد صادفت وجهًا مليحًا ، لغادة شقراء هبطت معى بكلبها فى مصعد الفندق الذى اتخذته منزلاً ، مشيت وأنا أكاد أصفر بفمى وأترنم . وأشرفت على حانوت الحلاق . . وإذا أنا أراه . أرى ذلك الذى كتب لى أن يكون صديقى . رأيته يخطر على الإفريز كأنه غزال ، وفى عنقه الجميل رباط أحمر وإلى جانبه صاحبه : رجل قروى من أجلاف الفلاحين . ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون . وبجمال منظره ورشاقة خطاه يعجبون . لقد كان صغير الحجم كأنه دمية . . أبيض . . كأنه قد من رخام ، بديع التكوين كأنه من صنع فنان . وكان يمشى مطرقًا فى إذعان ، كأنما يقول لصاحبه : اذهب بى إلى

حيث شئت فكل ما فى الأرض لا يستحق من رأسى عناء الالتفات

ذلك هو الجحش الصغير الذى استرعى أنظار الناس فى ذلك الشارع . ومنظر جحش فى مثل هذا الحى كاف وحده لإلقاء العجب فى النفوس . ولكن هذا الجحش كان ولا ريب جميلاً فى الجحوش . فقد كانت عيون المارة تشع بالإعجاب قبل العجب . ووقفت به سيدات إنجليزيات داخلات محل « حرولى » فما تمالكن أنفسهن من إظهار الحب له . فلو أنه شيء يحمل لما ترددن فى اقتنائه وحمله كما تقتنى الحلى وتحمل . وكان صاحبه يريد بيعه فيما خيل إلى . فلقد سمعته يقول لمن أحاط به من مارة وباعة صحف وغلمان :

— بخمسين « قرش » !

وكانت قدماى على الرغم منى تسيران بى مع الجمع المحيط بالجحش . وكانت عيناى على الرغم منى لا تنحرفان عن النظر إلى هذا المخلوق الصغير الجميل وإذا بفمى على الرغم منى ينطلق صائحاً :

— بثلاثين « قرش » !

فالتفت الجمع كله نحوى . ودار لغط وارتفع كلام ، وإذا بى أرى رجلاً قد انبرى من بين الجمع : هو بائع صحف يعرفنى ويبيعنى صحفه ، قد تطوع للعمل باسمى ، فجذب الجحش من يد صاحبه الفلاح الحريص : وصاح فى وجهه :

— سيدنا البك أمر ، أمره يمشى على رقبتنا !

فأطبق الفلاح يده على عنق الجحش وصاح :

— ثلاثين قرش ! هو فرخة رومى !

— عيب يا جدع انت ترد على البك الكلام !

— والله ما أفرط فيه بأقل من أربع برايز !

وحمى الشد والجذب بين الرجلين ، حتى كاد ينخلع فى أيديهما عنق الجحش

المسكين . وانتهى الأمر بانتصار سمسارى المتطوع فقد صارت فى يده البضاعة قسرًا . والتفت إلى قائلاً :

– هات يا بك الثلاثين «قرش» !

فتردد البائع وتراخى ولكنه أراد مع ذلك أن يحتج قليلاً فأغلق الرجل فمه بقبضته وصاح :

– اسكت إلا «أخرشمك» ! هات يا سيدنا البك الفلوس واستلم الجحش مبارك عليك ! بيعته حلال بنت حلال !

وتقدم نحوى ساحبًا الحمار ليسلمنى قياده الأحمر المتدلى من عنقه . هنا ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، لقد تمت الصفقة من حيث لا أرجو فى حقيقة الأمر ولا أنتظر . فقد جرى كل شىء وأنا فى شبه غيبوبة ، فالثمن الذى حددته بثلاثين قرشًا إنما خرج من فمى دون تفكير أو تدبير . رقم لفظ على سبيل المداعبة . فإذا الهزل يصبح جدًا . . ودخل الآن الجحش فى ملكى وحيازتى . فما عساى أصنع به الآن وأنا داخل حانوت الحلاق . وأين أضعه ولا منزل لى غير حجرة وحمام فى فندق معروف ؟

وفوق هذا فجيبى كان خلوًا وقتئذ من مبلغ الثلاثين قرشًا . فلم أكن أحمل ذلك الصباح غير ورقة مالية كان فى عزمى أن أستبدل بها نقودًا صغيرة ، فأردت الرجوع فى الصفقة . فتعذر على الأمر . ولاحقنى البائع والسمسار بالحمار . فقلت منزعجًا مرتبكًا وأنا أشير إلى حانوت الحلاق :

– لكن . . أنا داخل أحلق . .

فأجاب بائع الصحف من الفور !

– تفضل حضرتك احلق فى أمان الله . وأنا أقعد لك «بلا قافية» بالجحش على الباب فى انتظارك !

فقلت متململاً حائرًا :

– وحتى المبلغ . .

فعاجلني الرجل قائلاً :

– أنا أفك لحضرتك حالاً من عند الدخاخني . . وسد الرجلان في وجهي المسالك ، ولم يشفع لي عندهما قول ولا حجة . ولم يفد اعتذاري . ولزمني الحمار . فأذعنت . وأشرت إليهما فتبعاني به إلى حانوت الحلاق . ودخلت . فقلت للحلاق أن يؤدي عني الثمن من صندوقه . فأداه . وانصرف الفلاح ووقف بائع الصحف على باب الحانوت بالجحش . يطرد المتجمعين حوله من المارة والغلمان وأهل الفضول . وأنا جالس أفكر في الأمر وما أنا صانع بعد ذلك بهذا الحمل ، والحلاق يلطخ ذقني بالصابون ويتغزل في جمال الجحش ويثني على رزانته ويتحدث عما يلزم له من الغذاء والخدمة . ويتنبأ بما ينتظره من مستقبل باهر يوم يغدو كالفرس الأشهب . . وبقية «زبائن» الحانوت ينظرون إلي وإلى كل هذا ويكتمون ضحكهم ويخفون في رءوسهم ما خالجهم في أمري من ظنون ، إلى أن فرغت من الحلاقة فنهضت ودفعت الورقة المالية إلى صاحب الحانوت فأخذ ماله عندي . وخرجت فاستقبلني بائع الصحف . وقدم إليّ زمام الجحش وهو يقول :

أطلقه حضرتك يجري في الجنينة !

فقلت كالمخاطب نفسي :

لو كانت الجنينة موجودة لهانت المسألة . .

فقال الرجل :

– أطلقه على السطح والا في «الحوش» مع – من غير مؤاخذة – الخرفان .

فقلت وقد تخيلت مسكني في الفندق :

– وإن كنا نطلقه في الحمام . .

فقال الرجل فاغرا فاه :

— الحمام . . ؟!

فلم أرد على اعتراضه واستغرابه وقلت له آمرًا :

اسبقنى به على لوكاندة ( . . . . )

نعم لقد فكرت فى الأمر فوجدت أن هذا الجحش الجميل ليس أهون قدرًا ولا أقل طرفًا من ذلك الكلب الذى رأيته اليوم فى صحبة الفتاة الشقراء . فما الضرر فى أن يصحبنى اليوم فأنزله ضيفًا على يقاسمنى حجرتى حتى العصر ، لقد كنت أزمع السفر عصر ذلك اليوم بالذات إلى ريف قريب فى مهمة غريبة ، يأتى بيانها عما قليل . . فليبق معى إذن إلى أن أذهب به إلى الحقول فأطلقه يرتع فيها ويمرح . على أن ما شغل بالى هو أمر طعامه اليوم . لقد كان الحلاق يتحدث فيما تحدث عن غذائه ، إنه لن يطعم غير اللبن فهو رضيع فيما يرى ابن يوم أو يومين وقد انتزع من ثدى أمه انتزاعًا ليباع فى شوارع القاهرة ، ولعل ذلك لعسر وقع فيه صاحبه . فالفلاح إذا جاع باع كل ما يمكن أن يباع . من يدرى لعل هذا الرضيع اليتيم هو آخر حلقة فى سلسلة شقاء طويل . ولم استرسل فى التأمل فقد تجمع حولنا الناس من جديد . فأشرت إلى بائع الصحف أن يسرع بالجحش أمامى وأنا أتابعه عن كثب . فجذبه من رباطه الأحمر . فمشى المسكين مشيته الرزينة فى إطراقه وإذعانه دون أن يعنى بتبدل الصاحب وتغير المصير وجعلت أتأمله من بعيد فى مشيته . إنها تشبه مشيتى احيانًا . إذ يخيل إلىّ فى لحظات كأن رأسى قد ارتفع عن لجة الوجود المنظور إلى فضاء الوجود غير المنظور . فأمر بالحياة مذعنًا . لا أحفل بمن معى بمعرفة وجهتى .

نعم ، إن مشيتى كمشيته أحيانًا ، ونظراتى أحيانًا كنظراته الجامدة المشرفة على عالم ساكن صاف مجهول ، قد أغلقت دون الآدميين أبوابه السبعة المختومة بسبعة

أختام . . .

اللهم اغفر لى هذا الغرور ، إذ أرفع نفسى إلى مقام التشبه بهذا الكائن العجيب !

بلغنا الفندق . فأومأت إلى أحد الخدم الواقفين ببابه . فأقبل نحوى . وهو نوبى أمين اعتاد أن يقوم بخدمتى ويعنى بأمرى واعتدت أن أسخو عليه وأبذل له فى العطاء . فلما دنا منى أريته الجحش فى يد « السمسار » وطلبت إليه همساً أن يحمله بين ذراعيه ويصعد به « سلم الخدم » ويضعه خفية فى حمام حجرتى . فحملق الرجل فى وجهى بعينيه . فأخرجت من جيبى قطعة فضية دسستها فى كفه ، أفاقته من عجبه ، وهيأته لصنع المستحيل . فأطبق على الجحش واحتضنه وذهب به وهو يتلفت يمينًا وشمالاً خشية أن يراه من يسعى به لدى مدير الفندق .

ونظرت إلى بائع الصحف فرأيته يفرك كفيه فى انتظار الأجر . فدفعت إليه هو الآخر قطعة فضية لثمها سرورًا وانصرف وهو يرفع يديه إلى السماء ويقول :

— ربنا يهنيك به ! ربنا يبقيه لك ! ربنا ما يحرق لك عليه كبد !

وغاب عن عينى فى منعطف الطريق . وأنا أنظر إليه ولا أدرى إن كان يسخر منى أم يقول جَدًّا .

ودخلت الفندق من بابه الكبير الدائر ووقفت فى البهو قليلاً أتصفح وجوه النازلين فيه من سائحين وسائحات ، ثم ارتقيت بالمصعد إلى حجرتى فى الطابق الخامس : ودخلتها فألفيتها كما تركتها ، كل شىء فيها قائم فى مكانه على أحسن ترتيب . كتبى وورقى فوق المكتب ، وملابسى فى الخزانة وفوق المشجب . و « جراموفونى » وأسطواناتى . وأوانى الزهر فوق المناضد . وأصص الورد على حاجز الشرفة . لا شىء مطلقًا يدل على أن فى هذا المكان « دابة ركوب » . واتجهت إلى الباب الصغير الموصل إلى الحمام الملحق بحجرتى وفتحته وإذا أنا أمام الجحش واقفًا

رزينًا مطرقًا على عادته . فتأملته لحظة فى إعجاب ، ثم تركته إلى هدوئه وصفاته ، وعدت إلى الحجرة وضغطت على زر الجرس ثم ارتميت فى مقعدى الكبير إلى جوار باب الشرفة . وما لبث بأنى أن طرق علىّ . ثم ظهر خادم الطابق .

فابتدرته قائلاً :

— واحد قهوة لى ، وواحد لبن لـ . . وأشارت عينى على الرغم منى إلى جهة الحمـام . ولكنى لم أستطع أن أتم الكلام . . فهذا الخادم ليس عنده بعد علم بالموضوع .

فقال سائلاً فى أدب :

— لمين !

— لـ . . بعدين تعرف .

قلتها على عجل وأنا أومئ إليه بيدى لينصرف إلى تلبية الأمر . وذهب الخادم ثم عاد بعد قليل يحمل صينية جميلة من «الكريستوفل» عليها فنجانان نظيفان وأبريقان لامعان . ووضع أحد الفنجانين مع أبريق القهوة أمامى ثم وضع الآخر مع أبريق اللبن تجاهى وجذب كرسيًا من ركن الحجرة وضعه أمام الفنجان الثانى ، فما تمالكت نفسى من الابتسام . وخرج الرجل وأغلق خلفه الباب فى لباقة وكل شىء فيه يدل على أنه قد فهم . . فهم ما قد يخطر على بال خادم فندق اعتاد أن يحضر «طلبات» المواعيد اللطيفة ، فى الخلوات الظريفة .

وما كدت أخلو إلى نفسى ، حتى أسرعت إلى الحمام بفنجان من اللبن وضعته على «سجاد الفلين» تحت فم الجحش . وانتظرت أن يرشف هذا الصديق من اللبن رشفة أو رشفتين ، فإذا هو جامد لا يتحرك وإذا عيناه تنظران إلى الفنجان فى غير اكتراث كما تنظر عين الزاهد إلى لذات الحياة . فعجبت وقلت فى نفسى : هذا مستحيل مهما يبلغ زهد هذا الفيلسوف ، فإن فنجانًا من اللبن لا يعد من الترف

فى شىء   ولا أحسب بعد أن هذا المخلوق الصغير يستطيع أن يتحمل الصوم وقتًا طويلاً ، لابد من علة فى الأمر . وأعجزنى معرفة السبب . فأنا حديث عهد بمعرفة طباع هذا النوع الطريف من المخلوقات ، فإن جل معارفى منحصرة فى ذلك النوع المبتذل الذى يسمونه النوع «الإنسانى» . وهو على ما رأيت منه لا يأبى مطلقًا التهام ما يقدم إليه مما يؤكل ومما لا يؤكل . . حتى لحم أخيه . هو دائمًا جوعان عطشان إلى شىء . وهو لا يصنع شيئًا إلا لغاية ومأرب ، حتى فى صلاته وصيامه . ورأيت آخر الأمر أن أسترشد بالحلاق فهو فيما خيل إلىّ عليم بما لا أعلم من هذا الأمر . فتركت حجرتى وهبطت إلى الطريق سريعًا . ومشيت إلى حانوت الحلاق . إذا بى أعثر «بالسمسار» فما كاد يرانى حتى صاح بى باسمًا :

– ازاى حال «اسم الله عليه» .

فضحكت وقلت له :

– اسمع يا . . إنت اسمك إيه ؟

– محسوبك دسوقى .

اسمع يا دسوقى . إنت مش قلت إنه يشرب لبن .

– معلوم يشرب لبن .

– وإيه رأيك أنه مارضاش حتى يلتفت للفنجان !

فحملق الرجل فى وجهى وقال :

فنجان ؟

فقلت :

– أيوه . . طلبت له واحد لبن . .

فقاطعنى الرجل صائحًا :

طلبت له واحد لبن ! ! هو من غير مؤاخذة سواح من السواحين ! !

دا يا سيدنا البك جحش ابن يومين بالكثير بيرضع من بز أمه . دا لازم له من غير مؤاخذة «بزازة» من الأجزاخانة .

فأدركت فى الحال مقدار جهلى وغباوتى وقلت :

— آه ، صحيح ، عندك حق .

وتركته . وأسرعت إلى أجزاخانة قريبة فدخلتها وطلبت من فورى «بزازة»

فسألنى الأجزجى :

— الولد عمره أد إيه ؟

فارتبكت وقلت :

— والله . . مش ولد . .

فقال الأجزجى :

— البنت .

— ولا بنت .

فحملق الرجل فى وجهى كالمخاطب لنفسه :

— لا ولد ولا بنت ! يبقى إيه . فيه نوع ثالث جديد ما اعرفوش ؟!

فأردت أن أوفر عليه مئونة العجب فبادرت قائلاً :

— هو فى الحقيقة . .

— آه مفهوم . . مش ابن حضرتك . .

— ابنى ؟! طبعًا لا ، مش ابنى دا جحش صغير .

— جحش ؟؟ آه . . أنا آسف . . لا مؤاخذة !. .

وظهر على الأجزجى الحرج وأسرع يحضر لى ما طلبت وقدم إلى زجاجة كبيرة فى طرفها ثدى من المطاط وقال :

— دى بزازة كبيرة تنفع كمان لجحش كبير .

لا مؤاخذة !..

فابتسمت وقلت له :

– العفو لا داعى للمؤاخذة .

ونقدته الثمن . وخرجت أحمل «البزازة» عائداً بها إلى الفندق . وصعدت إلى حجرتى فوجدت بابها مفتوحاً . وذكرت أنى تركته كذلك سهوًا عند ذهابى . واتجهت من فورى إلى الحمام ، ففطنت إلى أنى نسيت إغلاق بابه أيضًا قبل انصرافى ، وألقيت من فورى نظرة فى أنحاء المكان فلم أجد أثرًا لصاحبى فأسقط فى يدى . وحرت فى أمرى . أين وكيف اختفى ؟ أتراه خطف أم تسرب ؟ وخرجت إلى بهو الطابق . فإذا بى أسمع ضحكات رقيقة تنبعث من إحدى الحجرات . فمشيت نحو الصوت فألفيت نفسى أمام حجرة بابها مفتوح . وأبصرت الجحش واقفًا أمام مرآة طويلة لخزانة ملابس يتأمل نفسه مليًّا ، وإلى جانبه الغادة الشقراء تضحك عن ثغر يسطع نوراً . .

لم أدر ماذا أصنع . فلزمت موقفى أنظر ولا أنبس ، إلى أن حانت من الفتاة التفاتة شطر الباب ، فرأتنى ورأت «البزازة» فى يدى . فأدركت ونشطت نحوى تقول :

– عفوًا يا سيدى . . أهو . . ؟

– نعم يا سيدتى . . هو . .

وأومأت برأسى إيماءة تفصح عن صلتى بالجحش ، فضحكت وأقبلت علىّ تقول :

– لقد كاد يحدث ثورة فى الطابق منذ قليل ولكنها ثورة لطيفة . لقد جعل يسير فى البهو بكل اطمئنان ، ويدخل كل حجرة يجد بابها مفتوحًا ، ويتجه توًّا إلى كل مرآة يصادفها ، فيطيل النظر إلى نفسه . لقد سمعت قاطن الحجرة المجاورة يلفظ

صيحة دهش . فلقد كان أمام مرآته يعقد رباط رقبته وإذا هو فجأة يرى فى المرآة جحشًا . . قالت الفتاة ذلك وأغرقت فى الضحك . فضحكت أنا أيضًا . ثم سألتها :

– وكيف استقر به المطاف فى حجرتك ؟

فأجابت :

– بعين الطريقة . يبدو لى أنه انطلق من بين قدمى الجار منفزعًا من صيحته ، واتجه إلى بابى ، فدخل علىّ بغير استئذان وتأمل صورته فى مرآتى بغير أن يعيرنى التفاتًا .

فقلت :

– يا له من أحمق ! شأن أكثر الفلاسفة ! يبحثون عن أنفسهم فى كل مرآة ولا يعيرون الجميلات التفاتًا !

فابتسمت عن ثغرها البديع ابتسامة رضا . وقالت وقد اتخذ وجهها هيئة الجد فجأة :

– حقًّا لست أدرى ما شدة اهتمامه بهذا الأمر .

فقلت :

لقد نسى فيما أرى شأن جسده وأنكر أمر «المادة» فهو لم يطعم شيئًا حتى الساعة .

فأشارت إلى «البزازة» فى يدى :

ألم تقدم له شيئًا من اللبن ؟

– قدمت له ذلك فلم يعجبه .

وقصصت عليها ما فعلت ، فضحكت منى كما ضحك السمسار من قبل . وقالت :

– يبدو يا سيدى انك لم تكن قط أباً .

فقلت :

– صدقت فراستك يا سيدتى . . ذاك أول عهدى بالأبوة ! فمدت يدها نحو «البزازة» وقالت :

– إذا أذنت . فإنى أتولى عنك هذه المهمة . فإن المرأة على كل حال أحذق بمثل هذا العمل وأجدر .

– إنها منة عظيمة وفضل منك يا سيدتى . . لا أنساه . .

قلت ذلك وتركت لها الجحش وأداة إطعامه ، وقدراً من اللبن ، أمرت بحمله إليها . . وانصرفت إلى شأنى حامداً شاكرًا . .

(حمار الحكيم ١٩٤٠)

# موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالساً على إفريز المقهى المعتاد بجوار صديقى حسن «بك» . . وهو ليس من أصحاب الألقاب ولا حملة الرتب ، ولكن هكذا نناديه ، لأن حب المظهر شىء فى دمه ، والرغبة فى «التظاهر» طبع فيه . .

مر بى فى ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمته ، ولم أكن رأيته منذ شهور . . وأمرت له بفنجان من القهوة . . وأخذنا فى الحديث . . وإذا شخص يدنو منى مبتسماً متردداً ، فالتفت إليه وبادرته :

- من حضرتك ؟ . . .

- أنا اسمى . . مرقص . .

- طلباتك ؟ . . .

فمال على أذنى هامساً :

– هل تقبل أن تكسب خمسين قرشًا فى اليوم ، وأنت جالس فى مكانك هذا ، بدون أن تصنع شيئًا ؟

– بالطبع . . لا موجب للرفض . .

قلتها على البديهة ، كأنها من وحى الشعراء .

فبادر الرجل يقول :

– إذن اتفقنا . وهذه دفعة على الحساب

وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشًا ، دسها فى كفى ، فوضعتها على الفور فى جيبى ، وأنا أقول :

– اتفقنا . .

وانصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذى انقطع بينى وبين حسن «بلك» .

ولكن الرجل حدجنى بنظرة شديدة وقال :

– ألا تسألنى عن أصل الموضوع ؟!..

– أى موضوع ؟...

– لماذا إذن أعطيك هذه النقود ؟...

– وهل أنا أعرف ؟... كل معلوماتى فى الأمر ، أنه قد تم بيننا اتفاق . . ألم يحصل بيننا الآن اتفاق ؟ ألم يقع عرض وقبول ؟... أما من جهتى فقد قبلت وانتهى الأمر . . . بهذه المناسبة أحب أن أستفسر منك لماذا تعطينى هذا المبلغ ؟...

– أخيرًا . . اسمع يا سيدى . . المسألة بسيطة . . أنت تجلس هنا دائمًا تراقب المارة فى غير شىء ، فلن يكلفك جهدًا أن تراقب سيدة يقال إنها تتردد على هذه العمارة . . فتعرف لنا فى أى ساعة بالضبط تدخل ، وفى أى ساعة تخرج ؟...

– وما شأنك بهذه السيدة ؟...

– لا شأن لى بها على الإطلاق ، ولم أرها قط . .

– عجبًا !... وما الداعى إذن لأن تجعلنى «شرلوك هولمز» فى مسألة لا تعنيك ولا تعنينى ؟!.

فتنحنح الرجل ثم قال :

– فلنتكلم بصراحة . . لا أحسن من الصدق والصراحة . . أنا فى الحقيقة المكلف بهذه المراقبة فى نظير مبلغ جنيه ، ولكنى مشغول بعمل آخر ، وليس لدى الوقت الذى يمكننى من أداء هذه المهمة . . ففكرت فى أن أستأجرك من الباطن ، ونتقاسم المبلغ . .

– عظيم يا مرقص أفندى . . أنت فى الحقيقة هو الذى لا يصنع شيئًا ويتقاضى خمسين قرشًا . .

– وأنت أيضًا لا تصنع شيئًا .

– كيف تقول ذلك يا مرقص أفندى ؟... أنا الذى سأقوم بكل المهمة . .

– بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصتى ؟ . فليكن ما تريد . . أنا لا أحب أن أغضبك . . إليك عشرة قروش أخرى . .

– خمسة وعشرين من فضلك !...

– تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه ، وأنا الربع ؟!

– هكذا العدل . .

فنفخ الرجل غيظًا . . ولكن لم يجد من القبول بدًا . . فأخرج من جيبه فرق المبلغ ، ونقدنى إياه دون أن ينبس بحرف . . فوضعت النقود فى جيبى ووعدته خيرًا ، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسى . . ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

– حضرتك لم تسألنى عن السيدة . .

– أى سيدة ؟...

– التى ستراقبها . . كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف منى أوصافها ؟...
– حقيقة . . غاب عن فطنتى ذلك . . اذكر لى أوصافها . .
– خير من هذا أن أريك صورتها ، لتنطبع ملامحها فى رأسك جيداً . . إليك الصورة . . انظر . .

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة أطلعنى عليها بحذر وهى فى يده . . فقلت له :

– هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟..
– ليس هذا من المستحسن ، لأنى وعدت أن أحرص عليها ولا أسلمها لأحد . .
– ومن الذى أعطاك إياها ؟...
– لا يا سيدى ، هذه أسرار خاصة ، لا يجوز لنا الخوض فيها . . هذا لا يعنينا . . فلنعمل فى حدود التكليف ، ولا دخل لنا فى الباق . .
– أهو زوجها ؟...
– لا أظن . .
– لعله خليلها ؟...
– ربما . . .
– خليلها يشك فى سيرها ويغار على سلوكها ؟!..
– فراستك فى محلها . . . على كل حال هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه . . أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا فى الحفظ والصون .
– مفهوم ، مفهوم . .
والآن . . أنا معتمد عليك . .

– اطمئن فقط لا أخفى عنك أن ذاكرتى ضعيفة ولا يعتمد عليها ، فمن مصلحة العمل أن تترك لى الصورة ، ولو ليوم واحد ، أرجع إليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط . . إن السيدات المارات كثيرات . . ومن الصعب على مثلى أن يفرز هذه من تلك . .

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأسه قليلاً ثم مد لى يده بالصورة وهو يقول : «لا بأس . . أبقها معك اليوم» وأوصانى بالمحافظة عليها لحين ردها إليه فى الغد . .

وانصرف مرقص أفندى مشيعاً بعبارات التجلة والاحترام ، وماكاد يختفى عن بصرى ، حتى ملت على جليسى حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها – مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشاً بالطبع – وختمت الكلام بقولى :

– أنت تعرف أن غفلتى أكبر من فطنتى ، وأن سهوى أكثر من صحوى ، أما أنت فكثير الفطنة ، شديد اليقظة ، فما رأيك لو قمت عنى بهذه المهمة . . وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التى سأطلعك عليها الآن ؟... على أنى قبل كل شىء أحب أن أصارحك بأن هذا عمل بأجر . .

فضحك حسن بك وقال :

– لا عليك . . إننى سأقوم به لوجه الله . .

– لا يا سيدى الفاضل . . الشغل شغل . . لا يوجد شىء اسمه لوجه الله . . وهل تظن وجه الله يرى بلا ثمن ؟... هذا التعبير خطأ فى خطأ . . ولست أدرى من ابتدعه . . إن وجه الله لا يشاهد بالمجان ، بل بمصروفات . . وإليك البيان : لابد من دفع صدقة وزكاة ، ونذور ، وفداء ، وكفارة ، ونفقات حج ، وتكاليف زيارة وإغاثة ملهوف ، والتضحية فى العيد بخروف . . إلى آخر تلك المبالغ التى –

لو جمعتها لكان الحاصل رقمًا لا يستهان به . فدع فكرة التبرع وتناول أجر عملك طبقًا للأصول المعمول بها فى جميع الأحوال . .

– أمرك . . أنقدنى الأجر إذن . .

– سأدفع لك ثمن فنجان القهوة . . أتقبل ؟...

– قبلت . . .

قالها راضيًا مغتبطًا ، ومد يده ليتناول من يدى الصورة . . فقلت له :

– مهلاً . . يجب أن تردها إلى قبل قيامك . . فقد وعدت أن أردها إلى الرجل غدًا . .

فقال بابتسامة بريئة :

– طبعًا . . وما الداعى لاحتفاظى بها طويلاً ؟..

فوضعها فى كفه . . فرفعها إلى عينيه باسمًا بغير اكتراث . . ولكن لم يكد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت يداه ، وارتعشت شفتاه . وهالنى أمره . فقلت له :

– حسن بك . . مالك ؟...

فلم يجب . . وخيل إلىّ أن أذنه لم تعد تسمع . . وجمدت عيناه على الصورة وتصبب العرق من جبينه . . فهززته بيدى قائلاً :

– مالك يا حسن بك ؟... هل . . هل تعرفها ؟

فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

– كيف لا أعرفها وهى . . زوجتى ؟!...

وانتفض الرجل انتفاضة خلت روحه قد خرجت معها ، ووثب من مقعده . وانطلق فى الشارع يعدو كالمجنون . . ولم يلبث أن غاب عن نظرى الشارد ، وفكرى الذاهل . . وكدت أصيح فى أثره :

— الصورة . . الصورة . .

ولكنى تذكرت فجأة كارثته . وأدركت أنها له . . وأنه أحق أهل الأرض بجملها والاحتفاظ بها . . فملكت نفسى وتاب إلىّ رشدى قليلاً قليلاً فلعنت يومى . . ولعنت مرقص أفندى . ولعنت الخمسة والسبعين قرشًا التى خسرت من أجلها صديقى ، وخسر الصديق زوجته ، وخسرت الزوجه خليلها . . ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدى إلى هذه الفواجع كلها ، لطالبت مرقص أفندى بما لا يقل عن خمسة جنيهات . .

(ليلة الزفاف ١٩٤٥)

# أريد هدم نفسى

فى ذات صباح دخل على حارس بابى وقدم إلىّ خطابًا قال إن صاحبه ينتظر الإذن «بالمثول» . وفضضت الغلاف وقرأت الخطاب فإذا هو معجب متحمس قد ذهب الإعجاب برأسه فجاء من بلدته وتحمل نفقات السفر كى يظفر بخمس دقائق يرى فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب . أو ذلك المخلوق العجيب الذى تتساقط من فمه درر الفن والأدب ، فتملأ أحواضًا حوله يسبح فيها بط وأوز من الفضة والماس وتنبت فيها أزهار من النور والبللور إلى آخر هذا الخيال الذى لمحت أثره بين السطور . وكان عندى وقتئذ أديب معروف اطلع على الخطاب وقال : هذا يذكرنى بأحد الموسيقيين فى القرن الماضى . مشى من بلده على قدميه ليرى «ريتشارد فاجنر» ، فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الأستاذ قائمًا خلف زجاج نافذته ، وقفل إلى بلده غانمًا باسمًا .

فقلت لصديقى :

- لا محل هنا للمقارنة . فأنا لست «ريتشارد فاجنر» ، وصاحب الخطاب لن يقنع منى فيما يظهر بشبح مار خلف نافذة . لا تنس أنه دفع نفقات السفر ليرى مناظر قد صورها خياله منذ أيام وشهور ، وليعيش تلك الدقائق الخمس فى جو عبق بأحلام وأوهام ساورته فى ليال طوال وهو يقرأ ذلك «الهراء» الذى ملأنا به كتبًا ذات ورق صقيل وطبع أنيق . أى خيبة ستصدم نفس هذا المسكين إذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب ! .

وترددت قليلاً . ولحظ صاحبى ترددى فقال :

- إيذن له على كل حال .

فأذنت . وليس فى مقدورى أن أفعل غير ذلك . فإن رفض المقابلة فى مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب . ودخل الزائر . فإذا شاب يتقدم فى حياء واضطراب . سلم فى احترام ، وجلس حيث أشرت إليه . ولبث صامتًا مطرقًا ينتظر منى أن أبدأ الحديث . ولم أجد أنا ما أقول له . وطال صمتنا . ورأى صديقى الأديب أن الموقف قد فتر وبرد إلى حد أخجل الشاب فوق خجله . فافتتح الكلام فى لباقة قائلاً للشاب :

- أنت قرأت للأستاذ طبعًا . . .

فاندفع الشاب يقول فى قوة وتحمس :

- كل شىء . كل شىء من «أهل الكهف» الخالدة إلى آخر مقال ظهر فى الصحف للأستاذ .

فلم أنظر إلى الزائر والتفت إلى صديقى الأديب وقلت :

- ألم تدركها الوفاة بعد «أهل الكهف الخالدة» ؟.. إن هذه «الخالدة» جديرة أن تموت «حرقًا» كما تموت الساحرات الكاذبات .

فاحمر وجه الشاب وأراد أن يقول شيئاً . لكني مضيت فى كلامى .

– إنى أرجو ممن يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة أن يقرأها بعد عشرة أعوام . فإن استطاعت أن تحتفظ بسحرها عشرة أعوام فقط حق لك أن تعجب وأن تغتبط .

فلم يطق الشاب صبراً وصاح بى :

– لا تقل ذلك لا تقل ذلك . . أنت ولا شك لم تقرأ . .

ولم يتم . فقد قاطعه صاحبى الأديب بقهقهة عالية وهو ينظر إلى

– أسمعت ؟ إنك لم تقرأها . . وإنك لتحكم على شىء ليس لك به علم . .

وحجل الفتى الزائر قليلاً وتمتم باعتذار خافت وقال :

– إنى قرأتها كثيراً . لا أذكر كم من المرات . فإذا لم تكن هذه القصة خالدة فما هى القصة الخالدة ؟

– إنها «خالدة» إذا هبطنا بسعر «الخلود» إلى خمسة أعوام !

فاحتج الشاب وحرك يده على نحو عنيف فلم ألتفت إليه واتجهت شطر صديقى الأديب وقلت :

– إنى لن أنسى يوم شاهدت هذه «القصة» تمثل للمرة الأولى . لقد خرجت من إطارها الساحر . هذا الطبع الأنيق والورق الفاخر . فإذا هى شىء هزيل . لا يكاد يقف على قدميه . وإذا سحرها الوهمى الكاذب قد طار عنها كما يطير الريش الملون عن الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الأزرق والعصب الضئيل . هذه القصة التى لم تثبت «للتمثيل» أتستطيع أن تثبت «للزمن» ؟ .

فتململ الشاب ونظر إلى صاحبى الأديب نظرة المستنجد وقال له :

إنى ما أتيت اليوم لأسمع هذا الكلام من الأستاذ فأجابه صاحبى باسماً :

– إن الأستاذ أدرى بعمله منا

فقاطعه الفتى قائلاً :

– لا . لا . . أبداً

فنظر إليه صديقى دهشًا :

– ماذا تعنى ؟

فصاح الشاب فى حماسة :

– إن أعمال الأستاذ خالدة جميعها .

فلم أستطع كتمان ضحكى وقلت من فورى :

– أقسم أن الأستاذ الذى تتحدثون عنه لم يكتب سطرًا خالدًا .

فنهض الشاب على قدميه منفعلاً وقال بصوت متهدج :

– إنى لا أسمح لك . . إنى لا أسمح . .

فأسرع صاحبى الأديب وهمس فى أذنى :

– الزم الصمت . إنى ألمح الشر فى عينيه . وليس بمستبعد أن يهجم عليك ويشبعك ضربًا

فابتسمت وقلت للشاب فى هدوء ورفق :

– سنتفق على كل حال ذات يوم . . وربما فى يوم قريب . وسترى بعينيك أنى أنا الذى كنت على حق .

فهدأ الفتى قليلاً ثم نظر إلىّ وقال فى نبرة الأسف :

لماذا تريد أن تهدم عملك ؟

– لأنه لا يساوى الآن شيئًا . لقد قام بمهمته وانتهى الأمر ، إن الفن طويل والعمر قصير . وإن هذا الهراء الذى نكتبه ليس إلا محطات صغيرة نجتازها فى أثناء السفر فى طريق الفن ؛ لا ينبغى أن نقف عندها ولا أن نرجع البصر إليها . إن

ما يهمنى الآن هو المحطة التى بلغتها اليوم والمحطة التى أريد أن أبلغها غداً : إنى فى كل محطة يخيل إلى أنى فى مبدأ الطريق .

– إنه لتواضع .

– لا . إنه ليس كذلك . ينبغى أن تكون معى فى هذا السفر الطويل حتى تدرك أن «أهل الكهف» شىء قد مات ودفن منذ أعوام .

– إنها لم تمت .

– الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه .

– معذرة يا أستاذ . إنى لن أصدق أن «بريسكا» ميتة الآن . مهما تقل ومهما تفعل . إنى أسمع كلامها وأعيش معها . وأكاد أراها الآن . إن ملامحها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل . . كل هذا حى فى رأسى وقلبى كل هذا مصور فى مخيلتى تصويراً لا تمحوه كلماتك التى قلتها اليوم ولا أضعافها . إنى كنت قد جئت لأحدثك حديثاً طويلاً عن «بريسكا» وأستزيد من خبرها ولكن . . أرجو أن تأذن لى الآن فى الانصراف .

ومد لى يده فجأة وودعنى فى صمت وذهب سريعاً وأنا أنظر إليه حتى اختفى وحال بينى وبينه الباب . وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسى ونظرت إلى صاحبى الأديب فإذا هو كذلك مطرق مفكر . وأخيراً التفت إلىّ وقال :

– ما كان ينبغى لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب المسكين .

– أو كان ينبغى لى أن أتركه فى وهمه مخدوعاً فى خلود كاذب ؟

– ليس من حقك أن تصدر على نفسك أحكاماً أمام الناس . إنك ما دمت قد استطعت أن تخلق للناس أوهاماً جميلة وأحلاماً حلوة يعيشون فى جوها فإن من الإثم أن تخرجهم منها بكلمة . ومع ذلك فكن على ثقة – أنهم لن يصدقوا كلامك ، وأن حرصهم على هذه الأوهام التى ألفوها لأشد من حرصهم عليك

أنت وعلى حقيقتك التى تزعمها . أترى لو بعث نبى من الأنبياء اليوم وجاء يهدم دينه الذى أتى به قديماً ، ماذا يكون شأنه ؟ أيصدقه الناس بسهولة أم تراهم يرجمونه بالحجارة ويرمونه بالكذب والجنون ؟؟ إن تمسك الناس بالوهم الذى اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

– يا للعجب . ليس لى الحق إذن أن أهدم نفسى ؟ إنه الجنون أن أتصور أن ليس فى استطاعتى أن أهدم نفسى .

– نعم وأنها لنعمة حرمها المؤلف فيما حرم من أشياء . إن حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف !

(عهد الشيطان ١٩٣٨)

# بيتنا الذى لم يتم

انتهى العام الدراسى . وجاء الامتحان . ونقلت – بقدرة قادر – برغم مشاغلى الفنية – إلى السنة الرابعة النهائية . سنة الليسانس وتركت أمر «خاتم سليمان» فى يد زميلى مصطفى . وسافرت إلى الإسكندرية أقضى عطلة الصيف . فما كدت أصل وأنظر إلى منزلنا العامر حتى كدت أصعق . ما هذا الذى أراه أمامى ؟. إنه ليس منزلاً . . بل هو تركيب عجيب لا أعرف له وجهاً من ظهر . لقد أزيل جدار وأقيم آخر ، وخلع سلم وبرزت أحشاء قاعة بغير حائط ، وأطيح برأس السطح ، وأشياء أخرى غريبة من هذا القبيل . . وعرفت السبب : كان قد خطر ببال أهلى أن يجروا فى المنزل إصلاحات وأن يزيدوا فيه طابقًا . كان القطن فى ذلك العام مرتفع السعر ، فاجتمع لهم مبلغ لا بأس به . لم يروا أن يسددوا به رهن الأطيان أو رهن المنزل . ورأوا أن ينفقوه فى تحسين المنزل . ولست أدرى من صاحب هذه

الفكرة النيرة . أهو والدى أم والدتى ؟.. كل ما أدرى هو أن أول ثغرة فتحتها المعاول فى جدران هذا البيت لم يستطع كل مال الأرض . لا مرتب والدى الكبير وقتئذ ، ولا الأموال التى اقترضوها من البنوك والمرابين أن تسد هذه الثغرة . فقد أصبح البناء والهدم فى منزلنا هذا شيئًا طبيعيًّا مستمرًّا كالأكل والشرب . لايقف عند شهور ولا أعوام . ذلك أن والدى أراد أن يكون هو نفسه بنفسه المهندس والمقاول وملاحظ العمل فأحضر البنائين والنجارين والحدادين . وصار يقول لهم : شقوا هنا دهليزًا وأزيلوا من هناك جدارًا وسدوا هنا شباكًا وافتحوا هناك بابًا .. فما إن يفعلوا ما أمر حتى يجد أن الباب بدلاً من أن يفتح على الردهة قد فتح على المرحاض ، وأن الجدار الذى أزيل جعل المطبخ قد أصبح الصالون . وهكذا وهكذا .. فيعود يأمرهم من جديد بسد ما فتحوا وإقامة ما أزالوا ، ويتجه بهم إلى جدار آخر يأمرهم بهدمه فيتضح أن عليه يقوم سقف إحدى الحجرات وأنه آخذ فى الانهيار ، فيبادرون إلى بنائه مرة أخرى .. كل ذلك وهو مصر كل الإصرار على الاعتماد على نفسه وخبرته والامتناع عن إحضار مهندس .

وكنت أتأمل ما يجرى من هدم وبناء ، وأتألم من طول نومنا فى حجرات منزوعة النوافذ ومغطاة بالبطاطين فأقول له : لماذا لا تحضر أحد المهندسين يتولى ذلك لنرتاح ؟.. فيجيبنى ساخرًا : «أنت عبيط !.. هل يحضر المهندسين إلا العبط !.. ما الذى سيصنعه المهندس أكثر من أن يرسم على ورق أزرق بضعة خطوط منمقة بالمسطرة والبرجل ليقول لنا هنا حجرة وهناك صالة . و «يلطش» كذا جنيه لمثل هذا الكلام الفارغ !.. ما سيقوله شىء معروف مقدمًا .. ونحن أدرى جيدًا بما نريد !..

وانتهى الأمر بنا بكل بساطة أن صار البناءون والنجارون والمبيضون مقيمين

لدينا إقامة مستمرة لأن العمل لا ينتهى ولا يمكن أن ينتهى . فاتخذوا لانفسهم حجرة دائمة قرب باب الحديقة يقطنون بها . . يبيتون ويسمرون ويأتى لزيارتهم فيها الأهل والأقرباء والأصدقاء ، وكان ينزل إليهم فيها من بيتنا القهوة والشاى والغداء والعشاء بانتظام . وأصبح لهم رأى فيما يطبخ ويقدم إليهم من ألوان يومية . فيقولون : «زهقنا من الملوخية والبامية اطبخوا لنا اليوم «كشرى» وأحيانًا يقترحون : «خللوا لنا خيار وفلفل ! .» ويصفون الطريقة التى يحبونها للتخليل وصنع الطرشى !.. والحديقة حولهم جعلوا يزرعون فى جانب منها بعض الفجل والكرات والجرجير كانوا متمتعين بهذه الحياة الهنيئة الناعمة . وكنت كلما سألتهم : متى ينتهى العمل فى هذا المنزل ؟.. وقد أصبحت الحياة فيه بالنسبة إلىّ وإلى أخى الأصغر لا تطاق ، من الحجرات التى بلا حيطان ، والنوافذ التى بلا زجاج ، وضجة الخبط والهبد فوق رءوسنا فى الطابق الحديد . قالوا : لن ينتهى !.. لأنها ساقية جحا . ما نبنيه الصبح نهدمه العصر !.. أوامر البك الكبير !.. وفى الحق كأنى بوالدى قد أصبح أخيرًا يجد متعته وهوايته الكبرى فى حكاية البناء هذه ، ويظهر أنه اعتقد حقًّا أنه لا ينقصه شىء فى شئون الهندسة والمعمار كان فى بعض الأحيان يستشير صديقه المهندس القديم (يوسف . ) إذا قابله بالمصادفة فى القاهرة . . لكن هذه المقابلة ما كانت تحدث إلا نادرًا لأن والدى كان قد أقام واستقر فى الإسكندرية رئيسًا لمحكمتها ، فكان إذا عاد بعد حضور الجلسة ، لم يتجه إلى الغداء وهو المتعب المنهك ، بل يتجه مباشرة إلى البنائين والنجارين ليرى ماذا صنعوا وهل نفذوا تعليماته التى شرحها لهم شرحًا وافيًا فى الصباح قبل ذهابه إلى عمله ؟.. تلك كانت عادته : يجمع البنائين والنجارين والمبيضين أمامه كل صباح ويشرح لهم ما هم صانعون فى يومهم ، ويسمى ذلك «الدرس» الذى لابد أن يدخله فى رءوسهم ، موضحًا لهم ما يسميه أيضًا «جدول الأعمال» اليومى . وكان

لا يتركهم إلا بعد أن يسألهم بكل دقة : هل حفظتم الدرس ؟.. فيجيبون جميعاً حفظناه . فيؤكد عليهم : وجدول الأعمال مفهوم ؟.. فيقولون كلهم : مفهوم . ولا يكتفى بذلك . فقد كان من عادته عند إصدار أى أمر أى تعليمات لأى شخص أن يطالبه بإعادة المطلوب بنصه منعاً للبس أو سوء الفهم . فلما سألهم : أعيدوا علىّ ماذا قلت ؟.. وأجابوا قلت كيت وكيت وكيت ، مضى مطمئناً . فإذا عاد من عمله قبيل العصر سمعنا منه الصخب والصياح والتعنيف وقوله : إن هؤلاء البنائين والمبيضين حمير ولم يفهموا حرفاً مما شرح . وينزل بيديه على ما بنوه هدماً وبقدميه ركلاً وهو يصيح : هدوا حالاً ! . كل هذا لابد من هدمه !.. شغل غلط فى غلط !.. وكان يقيس الحيطان بعصاه التى يحملها دائماً فى يده . ولا يلجأ إلى القياس بالمتر . فإذا عارضه أحد البنائين أو المبيضين أو النجارين وقال له : قس بالمتر يا سعادة البك . . المتر موجود !.. صاح به : عصاى أضبط من هذا المتر !.. لأنى أنا ضابطها على المتر الهندسى الأصلى فى مصلحة المساحة !.. إنها تسعون سنتى متراً بالتمام !.. وبلغ به الاهتمام بالهندسة أن صار يمشى معى أحياناً فى الشارع فإذا بى أراه يقف فجأة أمام أحد المنازل ويقول لى : انتظر حتى أقيس واجهة هذا البيت !.. ويشرع فى القياس بعصاه . فإذا سألته : لم ذلك ؟.. هل نحن سنشتريه ؟.. قال لا أبداً . مجرد معرفة . . وأحياناً نسير فى شارع من الشوارع نتحدث فى شئون هامة وقتئذ ، فإذا هو يقطع الحديث ويلتفت نحوى سائلاً : «تظن يطلع كم متر عرض هذا الشارع ؟.. ولا ينتظر منى جواباً . بل يرفع عصاه ويأخذ فى قياس عرض الشارع . وأحمد الله فى سرى أن الشارع خال من المارة ثم سألته عن حكمة ذلك ؟.. فقال : أنت ولد عبيط !.. الحكمة فى ذلك هو أن نكون على علم بكل هذه الأشياء ، حتى لا يأتى المجلس البلدى يوماً ويدعى أن شارعنا من الشوارع التى قرر لها عوائد كيت وكيت !.. وكان يحمل فى جيبه ساعة

معدنية رخيصة عتيقة يؤخرها دائما عشر دقائق ، فإذا سئل عن الحكمة فى ذلك قال : «كى يكون عندى دائماً عشرة دقائق مدخرة للطوارئ» . . كان والدى على الرغم من كل هده التصرفات الغريبة يملك مزية ، لم أرثها عنه مع الأسف ، لست أدرى لماذا ؟.. ولو أنى ورثتها لنفعتنى كثيراً وخاصة فى الفن الروائى . تلك المزية هى حرصه على التغلغل فى التفصيلات الدقيقة لكل شئون الحياة . ما يهمه منها مباشرة وما لا يهمه ، كانت كمية المعلومات التى جمعها عن كل شىء تثير الدهشة حقاً . فهو يعرف بالضبط كم طوبة تلزم لبناء حجرة كذا متراً ، وكم كيلة تلزم لزراعة كذا فداناً من البرسيم أو القطن أو الذرة . وكم رية تلزم لرى كذا . فإذا سألته فى القانون وإجراءاته المعقدة ، وفى أخلاق الناس على اختلاف مهنهم فى الحياة ، وفى الطب والأدوية ، وفى اللغة وقواعدها والشعر وبحوره ، والحدادة والنجارة وحتى العطارة . . كل شىء كان يلم فيه بتفصيلات عجيبة دقيقة . فى حين لا أستطيع أنا أن ألم إلا بالخطوط العريضة للأشياء . فى معانيها الكبرى لا فى تفصيلاتها . وأميل إلى التخفيف من كل ما أستطيع الاستغناء عنه . فأنا لم أحمل ساعة قط . ولم أحاول اقتناء طرفة من الطرف أو تحفة من التحف ، ولا أتناول إلا ما كان ضرورياً صرفاً . لذلك تناسبنى التمثيلية أداة للتعبير ، لأن مجالها المعانى والجواهر أكثر من الرواية التى مجالها التفصيلات . على أن والدى بمعلوماته الغزيرة فى أدق تفاصيل الأشياء ، ما إن يقدم على التفكير فى مشروع أو القيام بتنفيذه حتى تبدأ الخيبة المضحكة . . إن العلم عنده شىء والتنفيذ شىء آخر ، أو ربما كان العيب فى اختيار المشروع . . لست أدرى فى الحقيقة أين تكمن العلة ؟.. أهى مثلاً فى التناقض وعدم التناسق بين النزعة الخيالية والنزعة العملية فى شخص واحد ، إن والدى ووالدتى عمليان ، ولكنهما خياليان فى نفس الوقت . يفكران فى مشروع عملى بعقلية عملية وإذا بالخيال يتدخل ويجرفهما إلى وضع مضحك !.. أهو ذاك ؟..

لست أدرى على التحقيق . . فلأكتف إذن بسرد ما حدث بعد ذلك دون تعليق أو تفسير .

كاد ينتهى البناء فى المنزل ، وتم كل شىء بعد مضى وقت طويل ولكل شىء آخر ، وأخذ البناءون والنجارون والمبيضون المقيمون يعدون عدتهم للرحيل وينهون عهد الاحتلال . . احتلالهم للحجرة وما جاورها من الحديقة وإذا بخاطر يخطر لأهلى . خاطر جديد : لاحظوا أن بعض منازل الجيران العالية تكشف حديقتنا من الخلف . فقالوا : نسد عليهم ، بأن نبنى حائطًا . ثم تطورت عندهم فكرة الحائط إلى شىء آخر وفكرة أخرى : قالوا ما دمنا صرنا إلى بناء حائط – وهذا يكلف مالا – فلماذا لا نتم هذا الحائط بحائط آخر أمامه ، ما علينا إلا أن نسقفه فينتج عن ذلك جناحًا قائمًا بذاته يصلح للسكن والتأجير ، الفكرة بدت لهم منطقية . ومصيبة أهلى وخاصة والدى ، أنه يبدأ دائمًا من المنطق . . وشرعوا فى تنفيذ الفكرة ، وعاد البناءون والنجارون والمبيضون إلى حجرتهم من جديد . . وتم بناء الجناح بعد لأى . فلما تم على خير . تأملوه مليًّا ثم قالوا : حبذا لو وصلناه بالمنزل الأصلى بواسطة جسر أوكوبرى بينهما ، وكان منظرًا فريدًا عجيبًا فى البيوت أن تركب فيها مثل هذه الكبارى والجسور !.. وتم ذلك . فنظروا وقالوا : لماذا نترك أسفل الجناح مكشوفًا لتراب الحديقة ؟.. أليس من الضرورى أن ننشئ رصيفًا يفصل بين جداره الرمل والتراب ؟.. وتم إنشاء الرصيف وكان طويلاً بطول جدار الجناح الذى لا يقل عن ثلاثين مترًا . رصفوه كله ببلاط تكلف مبالغ . وأصبح منظره وهو مرصوف فى طوله وامتداده كأنه – كما قال أحد الزوار – أعد للعبة الانزلاق « الباتيناج » !.. وتلك أيضًا كانت من عجائبهما فى البناء !..

أظن إلى هنا وكان ينبغى أن ينتهى كل شىء ، وأن ينهض البناءون والنجارون والمبيضون إلى حزم أمتعتهم ليرحلوا . . وهموا بالفعل . . وإذا البستانى يظهر ليطلب

أسمدة للحديقة : زكائب عديدة من سبلة «الحيل» مما تسمد به الفاكهة والنجيل أى الحشائش الخضراء . ويتحدث عن ضرورة توريد هذا السماد فى أوقات دورية بانتظام لضمان ازدهار الحديقة . . وهنا فكر أهلى فى الأمر بالعبقرية المعهودة ! . . وجاءتهم الفكرة النيرة : أن يشتروا حصانًا لاستخدام روثه سمادًا . وبذلك يوفر ثمن الأسمدة المطلوب توريدها . فضلاً عن توفير نفقات المواصلات بالعربة التى سيجرها الحصان . معقول ولكن أين يقيم الحصان ؟. لابد طبعًا أن يبنى له إسطبل . وهذا طبيعى . وفى آخر الحديقة مكان يصلح . لكن هل يبنى الإسطبل كبقية الإسطبلات التى خلقها الله ! . . كلا . لابد من تصميم مبتكر للمهندس العبقرى الذى هو أبى ! . وفعلاً أمر ببناء إسطبل عجيب الشكل يتكون من ثلاثة طوابق : الطابق الأعلى لسكن الحوذى ، لأنه لابد أن يكون له محل سكن ، والطابق الأوسط لسكن الحصان ، والطابق الأسفل للروث المتخلف عن الحصان ، ينزلق إليه بواسطة فتحة ويتجمع ويتكون منه السماد المطلوب للحديقة . . وكان والدى مزهوًا بهذه الفكرة الرائعة ، وحث البنائين والمبيضين والنجارين على التنفيذ فورًا . فبنوا وشيدوا وبيضوا . وقامت الطوابق يعلو بعضها بعضًا . . وظل هذا البناء قائمًا شامخًا خاليًا طوال الأعوام ، لم يسكنه قط حوذى ولا حصان ولا سماد . . ذلك لأن التفكير انتقل بعد ذلك بسرعة إلى فكرة أخرى : استغلال هذا البيت الكبير الذى تضخم بفعل الأفكار المتلاحقة ، حتى أصبح فضفاضًا على الأسرة ، بحجراته العديدة فى كل طابق ، علاوة على الجناح ذى الرصيف ! . . لماذا لا يؤجر فى الصيف للمصيفين ؟ . . رأى هو عين العقل . وما يأتى به من إيراد يسدد به على الأقل أقساط الرهون . لكنهم فكروا مليًّا ثم قالوا : ما دمنا قد صرنا إلى التأجير للمصيفين ، فلماذا لا ننشئ طابقًا ثالثًا . . وكانت الفكرة هذه المرة فكرة والدتى . فما إن سافر والدى متغيبًا فى عمل بالقاهرة حتى قامت هى بالتنفيذ .

وما دام فن العمارة بهذه الطريقة فلماذا لا تسابق والدى فى المضمار . وفعلاً أصدرت الأوامر لفرقة البنائين والمبيضين والنجارين فما أن عاد والدى من رحلته ووجد الطابق الجديد يرتفع حتى شمر هو أيضًا عن ساعد الحد ، ونشط من جديد يعطى «الدرس» ويحدد للجميع «جدول الأعمال» ويهدم بالليل ما بنوه بالنهار . .

كان صيت والدى فى البناء قد انتشر فى المدينة بفضل ما كان يبتاعه من الطوب والبلاط والأخشاب السويدى والبغدادلى والكمرات الحديد والحير والزيوت . . وأصبح زملاؤه فى القضاء ممن يريدون بناء منزل فى المدينة أو فى الريف يأتون إليه ليتلقوا عنه الدروس . أذكر مستشارًا ، صار بعدها بقليل وزيرًا ، كان يأتى كل عصر يجلس فى الحديقة على كرسى يرشف القهوة التى تقدم إليه ويتطلع مبهورًا إلى والدى وهو يصعد ويهبط على سقالات البنائين ، يقيس الجدران بعصاه ، ويأمر وينهى وينصح ويشير وينهر ويصيح . . كان هذا المستشار ينوى بناء منزل صغير فى أطيان له ولا يدرى كيف يصنع فلما رأى والدى يصول ويجول هكذا فى ذلك البناء الطويل العريض جعل يهمهم بالإعجاب والإكبار ثم التفت نحوى وقال بنبرة صادقة : «أبوك أستاذ لا يجارى فى فن المعمار ! . .» وأخيرًا انتهت عمليات البناء . والله وحده يعلم بعد كم من الزمن . ولم يصبح فى الجعبة من الأفكار ما يؤدى إلى إضافة شىء أو الإنقاص من شىء . وهنا . . بدأ أهلى يزهدون هذا البيت ويلعنونه ، خاصة وقد فشلت فكرة التأجير . لأن المصيفين كانوا قد بدءوا يتجهون إلى البحر ، وكان موقع البيت السيئ مما ينفر المستأجر . وكانت تكاليف البناء المستمر قد أبهظت أهلى ، والديون أثقلت كاهلهم ، وأسعار القطن أخذت فى الانخفاض . فاتجه التفكير كله إلى شىء واحد : التخلص من البيت لكن كيف يتم التخلص منه ؟.. رأى والدى لذلك طريقتين : إما البيع . وإما البدل على أطيان ، ولجأ إلى السماسرة . وكانت حكاية السماسرة لا تقل عن حكاية البنائين

والنجارين !.. لبثت أعواماً طويلة وأنا لا أرى والدى إلا مع السماسرة فى مجيئه وذهابه وحله وترحاله فقد أصبح مستشاراً ثم ترك الخدمة لبلوغه سن المعاش . أو على الأصح لقبوله عرض وزارة الحقانية فى ذلك العهد ، عندما اكتشفت أنه هو ونخبة من زملائه المستشارين القدامى قد أجادوا خضب وصبغ شعورهم وشواربهم وجلسوا مطمئنين ، فذكرتهم بأن سن المعاش على أى حساب يريدون قد تجاوزها بسنوات وهم لا يشعرون . وتم الاتفاق والتراضى . وترك والدى مع زملائه المذكورين الخدمة . وتفرغ لشئونه الخاصة طول أعوامه الباقية ولا شغل له ولا شاغل إلا مسألة بيع البيت أو استبدال أطيان به . .

وفى ذات يوم طلع بفكرة جديدة هى : زيادة أثقال البيت بالرهون وكانت فكرته فى ذلك عجيبة : وهى أنه كلما كان العقار مثقلاً بالديون – فى زعمه – كان تصريفه أو الاستبدال به سهلاً ميسوراً . ولم تدخل الفكرة رءوسنا ، وجعلنا نقول له : كيف يكون ذلك ؟ وهل هذا معقول ؟.. إن العكس هو الصحيح ، فكان يجيب وكأنه يرثى لجهلنا : المعقول هو ما أقول : إذ من الذى يسعى عادة إلى تقديم أطيانه ليستبدلها ببيت ؟.. هو ولا شك صاحب الأطيان المرهونة . وهو طبعاً لا يتوقع أن يقدمها إلا فى نظير بيت هو الآخر مرهون . إذ من المغفل الذى يضحى بعقار خالى رهن ، ليأخذ عقاراً مرهوناً ؟! . وما دامت المسألة كلها رهناً فى رهن ، فلماذا نترك نحن بيتنا لنقدمه برهنه الخفيف نظيفاً إلى من سيقدم إلينا طيناً محملاً بالدواهى الثقيلة ؟!..

منطق !...

ومنذ ذلك اليوم ووالدى لا يرى إلا فى صحبة السمسارة ، فهو إما أن يسير فى الشارع ومعه سمسار ، وإما أن يجلس على قهوة فى حديث مع سمسار ، روى لى بعضهم أنه أبصر ذات يوم والدى جالساً بأحد المقاهى إلى مائدة على الرصيف ، فى

انتظار أحد السماسرة . فكان كلما جاءه الجرسون يمسح المائدة لتلقى الطلب ، قال له : «انتظر يا أخى كمان شوية» . فينصرف الجرسون قليلاً ثم يعود إلى مسح المائدة ، إلى أن تضايق والدى فنهض تاركًا له المائدة ، ووقف ينتظر على حافة الرصيف . فلما عاد الجرسون ليمسح المائدة ووجدها خالية تلفت ، فوجد والدى واقفًا على طرف الشارع ينظر إليه شزرًا ويقول : عاوز منى حاجة هنا كمان ؟!...

أما أنا فقد أبصرته بنفسى ذات مرة فى الشارع ، وأنا أهم بدخول مقهى «التريانون» بالإسكندرية ، بعد توظيفى . . استوقفنى وقال لى :

«أنت عبيط تدخل هذا المحل . . فنجان القهوة فيه بثلاثة قروش صاغ !» ...

وتركنى ومضى إلى قهوة بجوار البورصة اسمها «قهوة البن» الفنجان فيها بقرش ونصف . . ومع ذلك علمت - وياللتناقض - أنه ينفق فيها كل يوم ما يقرب من ريال على فناجين قهوة عديدة يشربها السماسرة الذين عرفوا وتسامعوا عن بغيته ، فأخذوا يفدون عليه الواحد تلو الآخر يمنونه بالآمال والأحلام عن تصريف البيت . .

( سجن العمر ١٩٦٤ )

# فى المحكمة

كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالى ببابها مكدسين كالذباب ، وكان مساعدى قد خر إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ، فلأترفقن به فى أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله . وحييت المأمور ونزلت أشق طريقًا بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى الانتظار . وماكدت أرى وجه القاضى حتى وجمت ، ففى المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشر الذى يعود إلى

القاهرة . ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا القطار لم يفت القاضي يوماً قط . أما القاضي الثانى فهو رجل ذو وسواس . وهو بعد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطئ فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ولعله أيضاً يزيد شغل وقته وتسلية ضجره فى هذا الريف وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ، فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيقنى جلسته مر العذاب . فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتى لا أبدى حراكاً طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت إبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تباعاتها[1] علينا فندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

ووجمت لرؤية القاضي إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدرى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأً أن اليوم نوبة القاضى السريع .

دخلت الجلسة . وكان أول ما فعلت أن نظرت فى «الرول» فإذا أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم  على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر . والسبب بسيط : أن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، فى حين أن الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب

(١) مسئولياتها .

السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدرى العلة . فكنت أقول فى نفسى «ارفع أسعارك تر ما يسرك» وبدأ المحضر ينادى أسماء المتهمين من ورقة فى يده . وقزمان أفندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا . وهو إذا نادى تعاظم فى حركاته وإشاراته وصوته . والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الآمر الناهى . فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر . ولكن فى مد وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : «أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات . أو على بطاطة وبلح أمهات ؟» فأجابه الحاجب : «جنح ومخالفات أو بلح أمهات . كله أكل عيش» .

ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق . فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه . وقال للماثل بين يديه :

– أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة

– يا سيدى القاضى . الخروف . . دبحناه . ولا مؤاخذة . فى ليلة حظ «عقبال عندك» بمناسبة طهور الولد .

غرامة عشرين «قرش» . غيره . .

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى . مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه . . وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة . . وقد ملئوا المقاعد و «الدكك» وفاض فيضهم على الأرض والممرات . . فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يديه عصًا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :

– فهموني الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة . . !

وحملق في الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الراقص على طرف أنفه . ولم يفطن أحد ولا هو نفسه لما في هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلاً نوع المخالفة ودخلنا في نوع جديد فقد قال القاضي للمخالف الذى حضر :

أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك في الترعة.

يا سعادة القاضي ربنا يعلى مراتبك ؟ تحكم على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟

لأنك غسلتها في الترعة

– وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضي وتفكر ولم يستطع جواباً . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب . فهم قد تركوا طوال حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز . والتفت القاضي إلىّ وقال :

– النيابة . .

– النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون ! فأشاح القاضي بوجهه عنى وأطرق قليلاً وهز رأسه ثم قال في سرعة من يزيح عن كاهله حملاً :

– غرامة عشرين ! غيره .

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع في صفرته ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال .

فما إن مثل حتى ابتدره القاضي :

– أنت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى

فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع .

– عشنا وشفنا الكلاب تتسجل «زى الأطيان» وتبقى لها حيثية !

– غرامة عشرين . . غيره .

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو . ولم أر واحداً من المخالفين قد بدأ عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوة يؤدونها . لأن القانون يقول : إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ! ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا لقضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : «قضايا الجنح» ونظر فى ورقة «الرول» ونادى «أم السعد بنت إبراهيم الجرف» فظهرت فلاحة عجوز تدب فى وسط القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدى قزمان أفندى المحضر . فوجهها إلى القاضى فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدى المحضر الهرم . وسألها القاضى ووجهه فى الورق :

– اسمك ؟

– محسوبتك أم السعد :

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فغمزها قزمان أفندى ووجهها إلى المنصة مرة أخرى وسألها القاضى :

– صنعتك ؟

– صنعتى حرمة [1]

---

(١) ولية .

- أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة .

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر :

- وحياة هيبتك وشيبتك إنى ما عبت أبدًا . أنا حلفت ووقع منى يمين أن البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو . .

فرفع القاضى رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحًا :

- تعالى كلميني هنا . أنا القاضى أنا . العضة حصلت منك ؟ قولى نعم أو لا . كلمة واحدة :

- عصة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة . لكن كله إلا العض .

فصاح القاضى فى المحضر : « هات الشاهد » فحضر المجنى عليه وقد لف بنصره فى رباط صحى . فسأله القاضى عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين ألاّ يقول غير الحق استوضحه الأمر . فقال الرجل :

- أنا يا حضرة القاضى لا لى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة وما فيها أنى كنت واسطة خير .

وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيه القاضى وهو يكظم غيظه . ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل . فبسط الرجل الأمر قائلاً : إن لهذه المتهمة ابنة تدعى «ست أبوها» خطبها فلاح يدعى «السيد حريشة» وعرض مهرًا قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبى صغير يطلق عليه اسم «الزنجر» فذهب من تلقاء نفسه إلى أهل العروس وأبلغهم كذبًا أن الخاطب قد قبل الشرط . ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبى ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج

هذا ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت اوزة ، وما كاد الطعام يهيأ ويقدم إلى الضيوف حتّى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير . واحتدم الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول فى صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة يا شماتة الأعادى والنبى ما سلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت المرأة فى وسط الرحال كالمجنونة تدافع عنْ حق ابنتها وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ، وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده فى طعام وقام إلى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . فى حين مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة ينهش منها نهشًا دون أن يدخل فى النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا فى طبق الأوز ولكن فى فم العجوز ، فصرخ صرخة داوية وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعًا ، وخرج به وهو يحرق الارم : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه . .

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم ، وقال كالمخاطب لنفسه : «يا ترى أنا حلفت الشاهد اليمين» والتفت إلىّ قائلاً «يا حضرة وكيل النيابة أنا حلفت الشاهد اليمين ؟؟» فجعلت أتذكر . ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : «احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق» فحلف الرجل . فصاح به القاضى : «اذكر أقوالك من أولها»

فعلمت أننا لن ننتهى . وبلغ الضيق أنفى وتثاءبت وعرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفانى . ومضى وقت لست أدرى مقداره ، وإذا صوت القاضى يصيح بى : «النيابة ! طلبات النيابة» ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم . فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فإذا

الإصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد «السلامية» الوسطى للبنصر. فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم بعدم الاختصاص. فالتفت القاضى إلى العجوز قائلاً:

– الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات.

يبدو على المرأة أنها فهمت الفارق، فالعضة فى نظرها هى ما زالت العضة. فما الذى حولها من جنحة إلى جناية؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين!

ونوديت القضية التالية. فإذا هى شجار بالهروات وقع بين والد «ست أبوها» وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر. وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها. فقابلهم الأب محتداً صارخاً فى وجوههن «جمل»؟ بقى بنتى تخرج على جمل؟ أبداً لابد من «الكومبيل».

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التى رماها بهم تطور العصر. وأدى الجدال إلى رفع العصى وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها فى مثل هذه الظروف. وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين فى الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التى تمر بالطرق الزراعية وحكم القاضى فى هذه القضية ثم صاح:

– «انتهينا من الفرح» و«الدخلة» على خير!.. غيره!

فنادى المحضر بصوته الممتلئ «قضايا المحابيس» وذكر اسماً من الأسماء. فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس قيده. ونهض من بين المحامين أفندى ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال: «حاضر مع المتهم». «فقلت فى نفسى» تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ فى رءوسنا

ما تشاء بهجة حرية الدفاع . فلأغمض عيني منذ الآن فرأسي أحوج ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضي يقول للمحبوس :

-- أنت متهم بأنك سرقت «وابور غاز» . .

-- أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت ولا نهبت .

فالتفت القاضي إلى المحضر قائلاً : «هات الشاهد» فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه «دفية» فحلف اليمين وقال إنه أشعل «وابور الغاز» ليهيئ الشاى لبعض «الزبائن» الجالسين داخل الحانوت فهو بدال ريفى صغير يبيع السكر والبن والشاى والتبغ ويجتمع لديه أحيانًا بعض الناس كأنهم فى شبه مقهى . ولقد وضع الوابور مشتعلاً عند عتبة الباب فى الطريق ودخل يحضر الإبريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق . والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر . وفجأة نظر إلىّ وقال كالمخاطب لنفسه : «أنا حلفت الشاهد اليمين ؟» فما تمالكت أن صحت فى ضيق : «سبحان الله ! أنا سمعتُ الشاهد حلف» . فقال لى القاضى : «أنت متأكد ؟» فشعرت أن روحى تفارقنى فهمست : «تحب أنى أحلف لك أنه حلف ؟» فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى إلى بقية الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق المتهم صبرًا فنهض بغتة كالمستغيث :

-- يا حضرة القاضى ! فى الدنيا «حرامى» يسرق «وابور جاز» بناره ؟!

فأسكته القاضى بإشارة من يده قائلاً :

-- تسألنى أنا ؟! أنا عمرى ما اشتغلت «حرامى ! » ونظر إلى منصة الدفاع .

فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلاً : «يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور . ولا رأينا وابور . ولا مررنا فى طريق به وابور . والقضية ملفقة من ألفها إلى

يائها . » وأراد المحامى أن ينطق فى هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

– حلمك يا أستاذ المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقى الوابور قدام باب الدكان

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

– هذا سوء دفاع من موكلى .

فأجاب القاضى فى هدوء :

– غرض حضرتك أن أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعًا !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا إلىّ أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة . وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى «زبونه» كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصًا لا يعى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس .

ونمت فى تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن فى اليوم التالى جلسة القاضى السريع . وقد كلفت مساعدى بحضورها على أن أحضرها معه إلى حواره كى أمرنه على نظام الجلسات . وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدى فى غرفة المداولة متأبطًا مظروفًا به وسامه وهو فى انتظار القاضى . ولم يلبث القاضى أن جاء فى القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب . وهما يشتدان فى الخطى والقاضى يخرج من جيبه نقودًا يناولها للحاجب ويقول له :

– اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واصح للبيض يا شعبان أفندى . والزبدة والجبنة على عهدتك . أوضع الحاجة فى السلالى «كويس»

وانتظرنى بها على المحطة فى قطر ١١ كالمعتاد . اطلع أنت السوق والأفندى المحضر يقوم بدالك بالعمل !

وانصرف الحاجب سريعًا . ودخل علينا القاضى وسلم فى عجلة قائلاً :

— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا أفندى يا محضر احضر الجلسة الجلسة . وألقى بمعطفه التيل الأبيض السفرى على كرسى . وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه فى الحال وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضى وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة . ونحن فى أعقابه . وصاح المحضر :

— محكمة !!

ونظر القاضى فى «الرول» وقال :

— قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف . لم ينق دودة القطن غيابى خمسين قرش . تهامى السيد عنيبة . . لم يقدم ابنه للتطعيم . «غيابى خمسين محمود محمد قنديل . أحرز بندقية بدون رخصة . . غيابى خمسين والمصادرة . غيابى خمسين . . غيابى خمسين . .

وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء . والمحضر ينادى مرة واحدة حتى يلاحق القاضى . فمن لم يسمع النداء عد غائبا وحكم عليه غيابيًّا . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

— أنت يا رجل تركت عنمك ترعى فى زراعة جارك ؟

— أصل الحكاية يا سعادة البك . .

— ما عندناش وقت لسماع حكايات . . حضورى خمسين غيره عبد الرحمن إبراهيم أبو أحمد . إلخ إلخ . .

وانتهت المخالفات فى مثل لمح البصر . وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين وهى تحتاج إلى شيء من الأناة . فأخرج القاضى ساعته ووضعها أمامه . وصاح فى المحضر :

- بسرعة القضية الأولى . .

فنادى المحضر :

- سالم عبد المجيد شقرف . .

فنظر القاضى فى الرول وعرف التهمة والتفت إلى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

- ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة . . قل من عندك !

يا سعادة البك فيه راجل يضرب حرمة !

- ممنوع الفلسفة كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أو لا ؟

- لا

فصاح القاضى فى المحضر .

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر فى «ملسها» الأسود الطويل . فلم ينتظر القاضى حتى تدخل الجلسة . وصرخ فيها :

ضربك ؟

أصل يا سيدى القاضى ربنا يخليك . .

مفيش أصل . ضرب والا لا ؟ هى كلمة لا غير .

- ضرب .

- كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود . . كلامك يا متهم . فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضى مشغول عن سماعه بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص إلى أن فرغ فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلى

المتهم أو ينتظر بقية دفاعه

- شهر مع الشغل

- يا سعادة القاضى أنا عندى شهادة . لا ضربت ولا بطحت الحكم ظلم ظلم يا ناس .

- اخرس ! اسحبه يا عسكرى !

فسحبه العسكرى بعيداً . ونوديت القضية التالية . فحضر رجل هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضى :

بددت القمح المحجوز عليه ؟

القمح قمحى يا سعادة القاضى وأكلته أنا والعيال .

معترف . حضورى . حبس شهر مع الشغل .

شهر ! يا مسلمين ! القمح قمحى . زراعتى . مالى . .

فسحبه العسكرى . وهو ينظر بعينين زائغتين إلى الحاضرين كأنما هو لا يصدق أن الحكم الذى سمع حقيقى . إن أذنه لا شك قد خانته . وإن اليقين عند الناس الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد . لقد جاءه المحضر حقيقة فحجز قمحه وعينه حارساً عليه حتى يسدد مال الحكومة . ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه فمن ذا الذى يعده سارقاً ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذى يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمرة غرسه . إن هذه الجرائم التى اخترعها القانون اختراعاً ليحمى بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست فى نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل جريمة والسرقة جريمة . لأن فى ذلك اعتداء ظاهراً على الغير . وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية ، ولكن التبديد . . كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها . وأسلم الشيخ أمره لخالقه .

وتسلمه الحراس وهو يقول : «لا حول ولا قوة إلا بالله» . ! ونوديت القضية التالية ، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضى قد وزن «الدوسيه» فى يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ، ونظر إلى ساعته ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محاميا فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ولم يخب ظنى ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

– النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلىّ مرتبكًا ، فأسرعت قائلاً :

– بالعكس ، النيابة تعارض فى التأجيل .

فأخفى القاضى امتعاضه وقال فى شبه همس :

– ننظرها والسلام . هات الشهود . .

غير أن القاضى ذكر أن هذه القضية إنما هى قضية «معارضة» فى حكم غيابى سبق فيها . وينبغى أن تقدم المعارضة فى خلال ثلاثة أيام . فقرأ فى الحال التواريخ وصاح من فوره فى المتهم متنفسًا الصعداء :

– القضية مرفوضة شكلاً يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد .

فلم يفهم الفلاح ذو «العرى» هذا الكلام . وقال :

– والعمل إيه يا حضرة القاضى ؟

– العمل إن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . احجزه يا عسكرى !

– الحبس بالزور يا حضرة القاضى ؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع كلامى ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

– اخرس ! معارضتك يا رجل بعد الميعاد ؟

– وماله ؟

– القانون يا رجل انت محدد ثلاثة أيام .

– أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف اقرأ ولا أكتب . ومن يفهمنى القانون ويقربنى المواعيد ؟

– يظهر أنى طولت بالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون . احجزه يا عسكرى !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو وحده الذى لم يفهم ؟!

وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى يفترضون فيه العلم بقانون « نابليون » ! !

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضى ناهضًا وعاد إلى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عجل ، فإن قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن القاضى تعود الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى اسراعه لم يفقد ثباته الداخلى ولا اطمئنانه ، وتناول معطفه الأبيض ووضعه على زراعه وسلم علينا وانصرف إلى المحطة فى شبه ركض ، وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعًا ببعض الملفات وخلفه عسكرى يسحب مسجونًا والكاتب يصيح

– القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس معروضة على حضرة القاضى .

فقلت له فى الحال :

– الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب .

– فصاح الكاتب فى العسكرى :

– هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة .

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطًا فى السلسلة كأنه كلب . وجروا كلهم خلف القاضى الراكض . هذا منظر مألوف لأهل البلد فى يوم هذه الجلسة . فإن المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر

وتمضى فى «بوفيه» المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين . ويتحرك القطار وقدم القاضى ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربة الأخيرة وهو يقول :

- رفض المعارصة واستمرار حبس المتهم

فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق «رخامة» مائدة البوفيه فى حين يتسلم القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك «سلالى» البيض والزبدة واللحم . والحاجب يصيح بأعلى صوته :

- اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

(يوميات نائب فى الأرياف ١٩٣٧)

# الطاجن وصل

كانت المشكلة التى تشغلنا أكثر مما يشغلنا عملنا هى مسألة الطعام . وهل فى ذلك عجب ؟. إن الطعام هو مشكلة الأمس واليوم والغد . . وهو الذى تقوم من أجله الحروب ! وتعقد من أجله المؤتمرات . . على أن مشكلتنا كانت أعوص من أى مسألة طرحت على موائد البحث . . لأنها لم تكن متعلقة بالطعام ذاته . . بل بطهو الطعام .

ولقد طرحنا وجوهها على موائد الأكل . حتى انتهى بنا الأمر إلى قبول لواقع بغير بحث . .

كنا ثلاثة – منذ عهد بعيد طبعًا – نقطن مسكنًا فى مدينة دمنهور : قاضى البندر ووكيل نيابتها وهو أنا ولا فخر . ثم قاضى ايتياى البارود . . وكانت النفقة بيننا بالثلث فى كل شىء . . وكان زميلاى متزوجين ، ولهما بيتاهما فى القاهرة . .

ولكن ضرورة العمل ونظام الجلسات اللذين يقتضيان بعدهما عن بيتيهما فى العاصمة أربعة أيام فى الأسبوع ، فرضا عليهما هذه التكاليف الإضافية . . فكان من مصلحتهما الاقتصاد غاية الاقتصاد . . وأدى بهما خوفهما من ترك الحبل على الغارب أن قررا وضع نظام لشئون مسكننا يماثل نظام الجلسة القضائية فى محاكم الاستئناف ، أى أن يكون الحكم للأغلبية . . فأنا مثلاً لا أستطيع أن أنفرد باختراع لون من ألوان الطعام إلا أن يؤيدنى واحد منهما . . وهكذا الحال مع الجميع . . وكان لنا خادم يقوم على خدمتنا ولكنه لا يفقه شيئًا فى طهى الطعام . . وكان ضئيل المرتب ، فحكمت الأغلبية ببقائه مع عدم الاعتراض على ما يقدمه ويسميه مأكولا . . حتى جاء الفرج ذات يوم فى صورة اقتراح تقدم به «حاجب الجلسة» الذى رثى لحالنا . . فقال أعزه الله :

– إذا شئتم يا أصحاب السعادة فإن امرأتى تعد لكم الطعام فى دارنا كل يوم وأحمله إليكم ساعة الغداء . .

فوافقت الأغلبية على شرط أن يكون الطعام مما يطهى فى الفرن لنضمن البساطة والنظافة . .

منذ ذلك اليوم ونحن لا نأكل إلا فى «طاجن» من فخار . . قد اسود من القدم والدخان «وهباب» الفرن . . تلقى لنا فيه امرأة الحاجب قدرًا من البطاطس وقدرًا من اللحم . . يتناقص مع الأيام . . دون أن تنقص النقود . . فلا يكاد يكفى بطوننا . وفيها بطن قاضى إيتياى وهو رجل عربى الأصل سليل قبيلة من قبائل البدو ، يضرب بلقمته قاع الطاجن ، فإذا أضخم اللحم وأطيبه قد وقع له . ولا يقوم من المائدة حتى يمسح قعر الوعاء بآخر كسرة ونحن نصيح فيه :

– اترك شيئًا لغداء الخادم !.

– غداؤه على الله . . إن الله لا يترك مظلومًا !..

يقولها وهو ينهض عن الخوان يجرع من «القلة» ويتجشأ . . وصرنا منذ ذلك الحين لا نسمى خادمنا باسمه . . بل أطلقنا عليه اسم «المظلوم». وجعلنا لا نناديه إلا بقولنا : «هات يا مظلوم كوب ماء» . . «امسح يا مظلوم الحذاء ! . .» وهلم جرا .

وكان يسمعنا أحيانًا بعض الزوار من الأصدقاء ، ونحن ننادى خادمنا بهذا الوصف . . فيتساءلون دهشين :

– أيوجد مظلوم بينكم ؟ وأنتم كلكم رمز العدالة ؟! فيقول قاضى إيتياى البارود ببديهته الحاضرة :

– حيث توجد العدالة يوجد الظلم . .

وكان قاضى إيتياى يمضى إلى جلسته بقطار الصباح الباكر ويعود بقطار الساعة الواحدة ظهرًا . . وهو يحرص على إنهاء جلسته فى هذا الميعاد ليلحق بهذا القطار . . لأنه إذا فاته فلن يجد أمامه غير قطار يصل إلى دمنهور فى منتصف الثالثة ، والمجىء به ، لا قدر الله ، معناه المجىء بعد موعد الغداء وفراغ الطاجن وإنصاف «المظلوم» ! . .

وكنا نحن من جانبنا : أنا وقاضى البندر . . وعملنا متحد فى جلسات الجنح . . والجلسة تشكل منه ومنى . . نحرص على إنهاء الجلسة قبيل موعد حضور القطار القادم من إيتياى البارود ، فقد تشاء أحيانًا المصادفة السيئة أن يتم إنضاج الطاجن فى الساعة الواحدة . . وأن يسبقنا إليه قاضى إيتياى . . فإذا حدث هذا والعياذ بالله ، فنحن أمام كارثة لا نستطيع لها دفعًا ولا ردًا . .

أخذتنا ذات مرة حماسة العمل وكثرة القضايا المعروضة على المحكمة . . فنسينا الوقت ونسينا أنفسنا ، وإذا حاجب الجلسة ينظر فى ساعته ويقبل مسرعًا يهمس بقرب المنصة :

– الطاجن وصل البيت من بدرى . وقطر إيتياى البارود وصل المحطة من زمان !..

– راح الغداء وعلينا العفاء

لفظها القاضى يائساً ثم نظر إلىّ قائلاً بصوت مرتفع :

– ما رأى النيابة ؟

– النيابة فوضت الرأى للمحكمة . .

– ترفع الجلسة للاستراحة . . على أن تعقد فى الساعة الخامسة بعد الظهر !..

ونهض من كرسيه يخلع وسامه الأحمر . . وأنا فى أثره أخلع وسامى الأحمر . ووثبنا إلى قاعة المداولة نطرح فيها ملفاتنا . . وخرجنا إلى عرض الطريق راكضين ونحن نقول :

– يا نلحق الطاجن . . يا منلحقهوش !..

لبثنا على هذا الحال زمناً . . لا طعام لنا إلا طاجن البطاطس فى الفرن . . حتى عاد قاضى البندر من القاهرة ذات يوم يقول لنا . . وكأنه ينبهنا من غفلة :

– يا لعجب أمرنا . ! حتى مجرد الذوق كدنا نفقده !.. ذكرت لزوجتى عرضًا مسألة الطاجن . . فدهشت وقالت : «ألا توجد عندكم صينية ؟. هل يوجد ألذ من صينية البطاطس فى الفرن !.. دعكم من هذا الطاجن وجربوا الصينية يا ناس ؟» .

فصحنا بزميلنا الطموح :

– ومن أين لنا الصينية ؟.

– نشتريها .

– أنا لا أدفع أكثر من عشرة قروش !..

قالها قاضى إيتياى وهو يخرج نصيبه من جيبه قطعة فضية . وأخذنا

الأصوات . . فأقرت الأغلبية الموافقة على شراء الصينية على شرط ألاّ يتجاوز ثمنها ثلاثين قرشًا . . وبادرنا فأفصينا برغبتنا إلى حاجب الجلسة . فهرش رأسه ثم قال :

– صينية نحاس بـ «ثلاثين قرش» ؟!..

مستحيل !.. أقل من خمسين أو ستين «قرش» . .

– هذا جنون !. ستين «قرش» ! لا . . لا داعى أبدًا فلنبق على الطاجن إلى آخر الدهر !. قلناها جميعًا بصوت واحد . وأقفل باب المناقشة فى هذا الشأن . . وانتقلنا إلى جدول الأعمال . . ومضى كل منا إلى عمله . . قاضى إيتياى ركب القطار إلى محكمته . وأنا وقاضى البندر ذهبنا إلى محكمتنا حيث تنتظرنا أكداس المخالفات والجنح . . وظل حاجب المحكمة بباب الجلسة ينادى على القضايا . . وظلت القضايا تتوالى أمامنا . والأحكام تترى من فم المحكمة كأنها طلقات من مدفع حتى عرضت علينا قضية رجل اتهم بأنه ضرب زوجته بعصا فأحدث بها إصابات اقتضت علاجًا أقل من عشرين يومًا . . فما كاد الرجل يمثل أمام المنصة . حتى نهض محام يقول :

– حاضر مع المتهم . . .

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة . . فالتفت إلىّ القاضى . وفى عينيه نظرة فهمت معناها . . فأنا أيضًا كان يجول فى خاطرى عين المعنى . . محام الآن ؟.. ومرافعة بإسهاب وبيان ؟!.. ما من شىء بالطبع يستعجل هذا المحامى وما من خطر يهدد غداءه . . فإن الله لم يبتله بقاضى ايتياى . وبادرت المحكمة تسأل المتهم بسرعة :

– اسمك ؟.

– محمد عبد المغيث شمروخ .

وأراد المحامى أن يتظرف فقال :

– اسمه «شمروخ» ولكن الضرب حصل بعصا رفيعة !..

فلم يبد على المحكمة التفات إلى ذلك المحامى «الرايق» . . وجعل القاضى يقلب فى أوراق الملف ويبحث عن التقريرالطبى . وهو يتابع أسئلته بصوت آلى .

– عمرك ؟.

– حوالى خمس وثلاثين سنة .

– صناعتك ؟.

– صانع صوانى نحاس ؟.

وهنا حدث انقلاب فى هيئة المحكمة . . فقد ترك القاضى الملف ورفع رأسه ناظرًا إلى المتهم باهتمام . .وكذلك فعلت النيابة . . وأقبل القاضى على المتهم يسأله بعناية :

– صوانى نحاس مما يستعمل فى الأكل ؟.

– فى الأكل وغير الأكل . . حسب طلب الزبون . .

– نقصد صوانى مما يطهى فيها البطاطس فى الفرن مثلاً ؟!.

– بطاطس يا سعادة البك وفطير ومكرونة . . وكل لوازم الفرن . .

– قل لنا الآن بالضبط . . صينية نحاس تتسع لاقتين بطاطس وأقة لحم ؟..

وعندئذ تدخلت النيابة فى شخصي . .

– لتكن بحيث تتسع لثلاث أقات بطاطس وأقة ونصف من اللحم . . يجب أن نحسب حساب «المظلوم» !..

فوافق القاضى على ملاحظتى . . وقال مؤيداً :

– صدقت . . يجب منذ اليوم إنصاف «المظلوم» !..

وأشرق لهذه الجملة وجه المتهم ، فهتف من أعماق قلبه :

- يحيا العدل !.. أنت يا سعادة القاضى كلك نظر. . وعرفت أنى مظلوم !.. فليحيا العدل !..

وظن المتهم أن المحكمة قد برأته . . ولم يفهم المحامى من الأمر شيئًا !.. فالمحكمة لم تسأل المتهم بعد عن ضرب ولا لطم ، وتحرك المتهم للانصراف . . فبادره القاضى صائحًا فيه :

- تعال يا راجل !.. قف مكانك . . ورد على أسئلة المحكمة !..

- محسوبك يا سعادة البك . .

- لنعد أولاً إلى مسألة الصينية . . وما هو الحجم . . حجم الصينية المذكورة ؟..

ولم ير المحامى فى هذه المناقشة الغريبة بصيصًا يمكنه من تتبعها ، فأخذ يقلب على عجل أوراق صورة المحضر فى ملفه . . ويهز رأسه حيرة وعجبًا وعجزًا . . وانتهى به الأمر أن قام يقول :

- يا حضرة الرئيس . . الضرب كما هو مدون فى محضر البوليس ومن أقوال المجنى عليها حدث من عصا رفيعة وليس من صينية نحاس !..

- لحظة يا حضرة المحامى . . لحظة . .

قالها القاضى وهو ينظر إلى المتهم ماضيًا فى سؤاله . .

- أخبرنا ما هو حجم الصينية بكل دقة . .

- هذا شىء حسب الوزن يا سعادة البك !..

- الصينية الصغيرة وزنها ثلاثة أرطال . . والمتوسطة ما بين خمسة وستة .

فقلت للرجل من كرسى النيابة :

- اعمل حسابك على ستة أرطال !..

فصاح القاضى بقوله :

هذا معقول !.. صينية ستة أرطال . .

وطفق المحامى المسكين يسمع هذا الكلام . . وهو كالمذهول ينقل عينه وأذنه بين القاضى ووكيل النيابة والمتهم ، ويحاول أن يفهم مما يدور بينهم شيئًا فلا يستطيع فيعود إلى ملفاته يقلب صفحاتها بسرعة . . وهو يقول كالمخاطب نفسه :

أنا قرأت القضية ، لو لم أقرأ القضية . .

ولم يطق صبرًا فجعل يهمهم فى مجلسه ويزفر ويهدر :

- لو كانت المحكمة تدلنى أين ورد ذكر الصينية فى الأوراق ، لا فى محضر التحقيق ولا فى التقرير الطبى ولا على لسان الشهود . . ما من إشارة عابرة إلى صينية ؟ سأجن يا ناس وأفقد عقلى ! .

ومع ذلك فكان عليه أن ينتظر مرغمًا حتى تنتهى المحكمة من استجواب موكله . . ففرك جبهته بكفه ، وركز انتباهه طلبًا للفهم . . والمحكمة ماضية فى سؤالها . .

- وما سعر الرطل النحاس ؟..

- سعر السوق اليوم حوالى خمسة قروش .

- أى أن الصينية المتوسطة الحجم ثمنها نحو ثلاثين قرشًا . . تقريبًا . .

وكان حاجب الجلسة قد أرهف أذنيه عندما وصل الحديث إلى السعر . . فما كاد يسمع أن الصينية ثمنها ثلاثون قرشًا حتى هاج وماج . . وزمجر وصاح من مكانه :

- تصدق المجرم ده يا سعادة البك ؟..

فالتفت المحامى ، وقد أخذته البغتة والدهشة من كل مكان . . فها هو ذا

حاجب الجلسة أيضًا قد دخل فى الموضوع . . وقد فهم المضمون . . القاضى والنيابة والمتهم والحاجب . . كلهم يتحاورون فى أمر هو وحده الذى لا يدرك كنهه . هو المحامى الذى قرأ القضية وأعد مرافعته البليغة فيها . . وهيأ لها جوها حتى النكتة الرائقة ، والإشارة البارعة . . ودرس كل ظروفها . . واحتاط لكل مفاجآتها . ها هى ذى مفاجأة ما كان ينتظرها . . وما كانت لتخطر له على بال . . كنت أبصر على وجهه فى تلك اللحظة هيئة لن أنساها . لقد كان مضحكًا فى حيرته إلى حد لا يتصوره . . . ولو رآه لضحك هو منه حتى آخر حياته . . ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلاً . . فسرعان ما انتهينا من مسألة الصينية وعدنا إلى موضوع القضية الأصلية . . واستطاع القاضى أن يحول دفة المناقشة بلباقة حتى دخل بها جوهر التهمة . كما يدخل الربان الماهر بالسفينة ميناء الأمان . بعد أن عبثت بها تيارات المحيط .. وعاد إلى المحامى اطمئنانه عندما بدأت القضية تسير فى مجراها الطبيعى .. فترافع ودافع كما اشتهى ، ونسى لحسن الحظ مطلع المناقشة الذى حيره .. ولم يسائل بعدئذ نفسه فيه ...ولم يكشف له سره بالطبع حتى اليوم ...

هكذا عشنا فترة من الزمن . .

نكد ونعبث ، ونعمل ونلعب ، ونخلط الجد بالهزل ، ونمزج الوقار بالضحك . . ونغلف تبعاتنا بثوب من المرح ، ويصبغ لنا الشباب كل شىء بلون الخمر . وكانت لكلمة الغد فى صدورنا خفقة، كخفقة الورد وهو يتلقى قطرة الندى فى كل فجر . . وكان لكل شىء فى أفواهنا طعم . . ولو كنا نعرف أن لذة «الطاجن» القذر قد ذهبت معه ، ولن نجدها بعد ذلك فى أفخم الموائد ولا فى أفخر الولائم . . وأن حلاوة المناقشة فى عشرة قروش لن تشترى فيما بعد بآلاف الجنيهات . لكنا قدرنا قيمة ما نملك ، وعلمنا أن السعادة كانت هابطة فى مسكننا دون أن ندرك . .

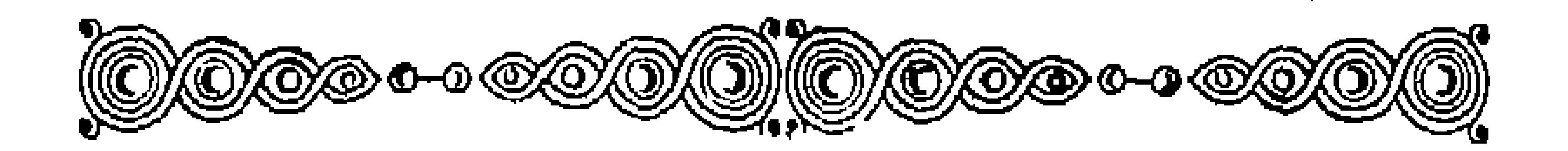
هكذا عشنا تلك الفترة إلى أن فرقت بيننا الأيام وبعثرتنا الأقدار . . فانتقل قاضى إيتاى إلى جوار ربه ووصل قاضى دمنهور إلى أرقى المناصب القضائية . وانتحيت انا جانباً أدون من حين إلى حين صفحة من هذه الذكريات . .

( عدالة وفن ١٩٥٣

# عوالم الفرح

إلى

الأسطى حميدة الإسكندرانية أول من علمنى كلمة «الفن»



## العوالم

«كتبت هذه القصة الوصفية عام ١٩٢٧
بعنوان «العوالم» ، وهى وصف لطائفة
عوالم الأفراح التى كانت معروفة فى مصر
قديمًا ، وانقرضت الآن»

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق . . نزل الحاج محمد المطيب * من عربة الدرجة الثالثة . . ووقف على الرصيف بجوار النافذة . . يجفف عرقه ويسعل سعال أصحاب الكيف الذين يعيشون بأنفاس التعميرة . . ثم صاح :

(*) المطيب أو المطيباتى .. كلمة كانت شائعة عند هذه الطائفة وقتئذ ، ومعناها يقرب اليوم من متعهد الحفلات .

– يا . . الله . . رمضان كريم . .

وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة . . وألقى نظرة اطمئنان سريعة على الأسطى حميدة وجميع أفراد التخت . . وقد انحشرن فى مقعدين متقابلين بطرف العربة . . تتوسطهن صرر الآلات . ثم قال :

– أديني بلا قافية رستأتكم فى ركن معتبر . . خليكو بقا كده بإذن الله لحد محطة سيدى جابر . .

فرفعت الأسطى حميدة يديها إلى السماء بقوة :

– شيلله يا سيدى جابر . . الفاتحة يا ولاد لسيدى جابر .

فصاح الحاج محمد بسرعة :

– بس حاسبى . . بلا قافية إيدك حاتوقع الرق من فوق الصرة على العود تنقطم رقبته .

– شر بره وبعيد . . شيلله يا سيدى جابر . . إلهى يجبر بخاطرنا . . بسره الباتع . إلا يا حاج محمد . . دى المستعجلة دى ولا المفتخر ؟!

– المستعجلة . . هو من غير مؤاخذة المفتخر يبقى فيه «ترسو» ؟!

– هلبت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور . .

– على أبو التسعين . . حاتلاقوا حد من طرف بيت الفرح مستنظركم على المحطة . .

وعندئذ رنت ضحكة سخرية من سلم الرقاقة العاجزة أردفتها بقولها :

– وإن ماكانش حد فى استنظارنا يا ادلعدى . . دى ساعة فطار وكل من كان همه فى بطنه !..

فالتفتت إليها الأسطى حميدة وقالت :

– النبى تنسدى . . وتحطى على ميلتك برش . . العلوان معاية .

فابتسم الحاج محمد وقال :

- براوه عليك يا أسطى حميدة . . أهو بلا قافية إن ماكانش حد فى استنظاركم أديك معالك العلوان . .

وكأن الأسطى حميدة بجلالة قدرها لم تفكر فى العنوان إلا فى هذه اللحظة . . ذلك لأنها أخذت فجأة تبحث عنه فى ملابسها وفى صدرها . . ثم التفتت إلى فاطمة الرقاصة وقالت بقلق :

- بت يا فاطنة . . الورقة اللى اديتها لك فين . . واحنا فى الحنطور ؟؟؟

فأجابتها :

- ما هى ملفوف فيها الصاجات .

فدقت الأسطى حميدة على صدرها صارخة :

- صاجات يا بت ؟.. الورقة اللى فيها العلوان . . إلهى يسخطك فتجهم وجه الحاج محمد قليلاً وقال :

- بقا بلا قافية مش عارفين تستحرصوا على حتة ورقة !..

وهنا دق جرس المحطة الأول فصاح جميع أفراد التخت فى وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب . .

- نشوف وشك فى خير يا حاج محمد . .

ولكن الحاج محمد أشار إليهم بالسكون :

- هس . . لسه . . هس سمع . . لسه فاضل كمان من غير مؤاخذة جرس . .

ثم سعل وبصق وصاح :

- يا . . الله . . رمضان كريم . .

فقالت الأسطى حميدة وهى تبتسم بخبث :

- بحق يا حاج محمد . . دا أنت صايم . . إلهى يصبرك . .

فلم يجب الحاج محمد . . ولم يتنبه إلى ابتسامات الخبث والسخرية التى تبودلت بين جميع أفراد الجوق . . واستمر يتمتم بذكر الله والصيام . . ثم رفع رأسه وقال :

– بقا فهمتم بلا قافية تعملوا إيه فى محطة سيدى جابر ؟.. تسألوا على بيت محمد بك قطى زى اللى مكتوب فى الورقة . . محمد بك قطى من أعيان إسكندرية ألف من يدلكم عليه . .

وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد :

– هه . . يا جماعة . . مش لازمكم حاجة ؟..

فصرخت سلم الضريرة :

– حاج محمد . . يا حاج محمد . . لازمنا قلة ميه . .

فأجاب الحاج محمد منتهرًا :

– قلة مية إيه . . احنا فى رمضان يا ولية اتقى الله . . واختشى على عرضك ؟..

فهزت نجية الطبالة رأسها وقالت :

– بحكم . . بقا المية يا حاج محمد والا التعميرة ؟!

فصاح الحاج محمد بغضب :

– تعميرة إيه يا مرة ؟.. وحق صيامى .

فقاطعته نجية :

– صيامك ؟.. صيامك أنهو ده يا روحى . . ماتقولش كده أمال . . دانا شايفاك بعينى الصبح فى إيدك الجوزة وقاعد تكح وتنبر !..

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الأسطى حميدة مغيرة مجرى الحديث فضًا للنزاع . . وقالت بعد أن غمزت الطبالة نجية بطرف عينها :

الحاج محمد صايم زى مانا صايمة . . فضكم يا ولاد من السيرة الغبرة دى وضكم . قطيعة . . آه . . حاج محمد يا حاج محمد . شوفى يا ختى نسيت أقول لك . . يادى الحوسة . . الأرانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد ماتنساش ترمى للأرانب فوق السطح قشر العجور . . أمانة عليك . . السيدة فى ضهرك !

وهنا دق الجرس الأخير . . وعلا الضجيج من كل جانب . .

وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت :

– نشوف وشك فى خير يا حاج محمد . .

وبين صياح الحاج محمد .

– مع السلامة . .

واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض حتى لم يعد فى مقدور الحاج محمد ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة الأرانب أو جملة نشوف وشك فى خير من بين هذه الأصوات المختلطة ... ومع ذلك استمر فى هدا الصياح الغريزى كل من الطرفين . . كأنما كل يصيح للصياح نفسه . . إلى أن ابتعد القطار . . وعندئذ هدأ كل لنفسه . .

جلس أفراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق كأنما فراق مصر ولو لمهمة قصيرة المدى أدخل على نفوسهن أثرًا محزنًا ووحشة مؤثرة . .

لم يقطع هذا السكون القاتم غير صوت سلم الضريرة قائلة :

– يوه . . شوفى ياختى نسينا نقول للحاج محمد يشترى لنا دخان . . بقا هو سلامته باكه السمسون إللى معانه حايكفى طول النهار ؟!

فلم يجب أحد . . واستمر كل فى سكونه وإطراقه . .

وأخيرًا رفعت الأسطى حميدة رأسها قليلاً وتنهدت ثم قالت بتأثر :

– يا حبيبتى يا مصر !..

وكأن هذه الجملة كانت تعبر تماماً عن إحساس الخمسة فأطرق الكل لحظة . .

ثم بدأ كل يرفع رأسه وينظر حوله ليرفه عن نفسه . .

فقالت سلم العاجزة :

– كلها بكرة ونرجع تانى لبلدنا . .

وقالت نجية الطالبة بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالى :

– وهى إسكندرية وحشة ؟.. والنبى إسكندرية روح . .

وقالت فاطمة الرقاصة وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالى الملاصق :

– إسكندرية مريه وترابها زعفران . .

وهكذا أخذ يسرى عن الجميع . . وتتلاشى آثار الوحشة . . فعاد الصفاء إلى وجه الأسطى حميدة وقالت :

– سلم . . لفى لى سجاره . .

تناولت سلم علبة الدخان وجعلت تلف سجارة فى حين أخذت الأسطى حميدة تلتفت حولها متصفحة وجوه المسافرين . . ثم نظرت إلى فاطمة ونجية وقالت بتهكم :

– حسرة وندامة على دول ركاب !

* * *

أصابت الأسطى حميدة . . فى الواقع أغلب الركاب كانوا من الصعايدة والفلاحين . . ومع ذلك فإن الأسطى حميدة بعيونها الكحيلة لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالى الملاصق . . أصحابه أربعة : ثلاثة أفندية . . ورابع يرتدى (بنش) وطربوشاً .

وإذا أرادت الأسطى حميدة أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن هؤلاء الأربعة

من حين أن تحرك القطار لم يفتروا لحظة عن النظر إليها وإلى هيئة التخت ما عدا سلم العمياء . . وإذا أرادت الأسطى حميدة إفصاحًا فلتسل عيون نجية وفاطمة . .

لفت سلم السجارة ثم دقت على صدرها قائلة :

- يوه يا ندامة الشوم . . ما معناش كبريت !..

وفى هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ودق على جدار العربة بكماشته وصاح :

- تذاكر قليوب ؟..

فصاحت سلم وهى تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

- يا حضرة المفتش . . مامعاكش كبريت إلهى ما تغلب لك وليه ؟

فأجاب المفتش ببرود :

- كبريت إيه ؟

فقالت الأسطى حميدة متلطفة :

- متآخذناش بس نولع السجارة . .

فقال المفتش بتحفظ وبغير أن يلتفت نحوهن :

- أنتم فاطرين رمضان والا إيه ؟..

وكان قد وصل إلى المقعد التالى الملاصق فسرعان ما تنحنح لابس البنش ورأى الفرصة سانحة للكلام فقال :

- القطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش !

فلم يجب المفتش . . بل لزم بروده وتحفظه . . وجعل يؤدى أعمال وظيفته بجد جاف . . إلى أن ابتعد . . فقالت الأسطى حميدة :

- يا سم على ده مفتش !..

فردت فاطمة وهى تنظر إلى الأفندية أصحاب المقعد الملاصق :

- ياختى حقاً ماله انط كده ومتعنطظ بعيد عنك ؟!

فتنحنح لابس البنش وقال :

– ما هو اللى زى ده من غير مؤاخدة فاهم نفسه الحكومة . .

فصادقت فاطمة على كلامه . . ثم أخذ الجميع العوالم من جهة والأفندية من جهة أخرى يتحدثون لحظة على حساب هذا المفتش . . إلى أن قال أحد الأفندية .

– جرى خير . . الحمد لله . .

وقال الثانى بلطف :

– الكبريت معانه يا ستات . .

وزاد الثالث :

– ومعانه سجاير كمان . .

ثم تنحنح لابس البنش وقال :

– حضرتكم نازلين فين . . ولو فيها رزالة ؟..

فردت سلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجاير :

– سيدى جابر يا ادلعدى . .

فصاح الرجال :

– زينا بقا . سكة واحدة إنشاء الله . . احنا نازلين اسكندرية . .

وأضاف أحد الأفندية :

– الليلة باذن الله نصلى التراويح فى سيدى أبو العباس . .

وتنحنح لابس البنش مرة أخرى ثم قال :

– أظن حضرتكم مسافرين فى فرح ؟!

فقالت الأسطى حميدة بعظمة وتفاخر :

– أيوه يا فندم . . فرح اسم الله محمد بك . محمد بك ايه يابت يا فاطنة ؟

فردت فاطمة بسرعة :

– محمد بك قطى . .

فنظرت الأسطى حميدة إلى الأفندية وقالت :

– محمد بك قطى من أعيان إسكندرية على سن ورمح . .

– أنعم وأكرم . .

أردف أحد الأفندية : – محمد بك قطى . . أظنه راجل كبير ؟!

فأجابت سلم العاجزة :

– العريس ؟ لا وحياتك إلا حتة جدع خفة مشلبن يشفى العليل ! . .

فالتفتت إليها نجية قائلة :

– إنت يعنى شفتيه ؟؟!!

فردت سلم :

– الحاج محمد كان بيقول العريس جدع صغار . .

وفى هذه الأثناء أخرج أحد الأفندية من جيبه علبة السجاير وأدارها على أفراد التخت وقال وهو ينظر إلى فاطمة الرقاصة :

– أظن الست الصغيرة هى اللى حاتلم النقطة ؟

فأجابت فاطمة بدلال :

– أيوه يا فندى . .

وقال آخر وهو ينظر إلى نجية :

– والست أمال إيه ؟.

فأجابته نجية بابتسام :

دربكة يا فندى . .

وقال الثالث لابس البنش للأسطى :

– احنا من حق بدنا نتشرف بالاسم الكريم . .

فأجابت الأسطى حميدة بخيلاء :

– حميدة المحلوية . . واسأل فى حتة باب الخلق ألف من يدلك :

فقال الجميع باحترام :

– أنعم وأكرم . .

ثم قال أحدهم وهو يشير إلى العود . .

– حضرتك بقا الأسطى العوادة ؟..

فأجابت : أيوه يا فندم . .

فتنحنح لابس البنش وقال :

– ما شاء الله . . ما شاء الله . . العود سلطان الطرب . . يا سلام !..

وقال آخر :

– معلوم . . دا أبو المغنى والحظوظ . .

ثم صمت الجميع لحظة . . قطعتها سلم بقولها :

– يعنى ماحدش سألنى أنا رخره أبقى إيه ؟..

فارتبك الرجال وخجلوا قليلاً وتمتموا باعتذارات واهية . . ثم أراد أحدهم التخلص من هذا الموقف فأخرج من جيبه علبة السجاير وأدارها من جديد على أفراد التخت . . غير أن سلم بعد أن مدت يدها وتناولت سيجارة قالت عابسة :

– بس كتر خيرك يا فندم . . احنا مانشربش غير سمسون فرط ماركة الغزالة !

وهنا كان القطار قد وصل إلى محطة قليوب فأبى الأفندى إلا أن يشترى لسلم باكه سمسون من المحطة . .

* * *

ما غادر القطار محطة قليوب حتى كانت العلاقة قد استحكمت تقريباً بين

أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة التخت . . فتنحنح لابس البنش وقال :

- بقا يا أسطى حميدة صلى على النبى . .

فقالت :

اللهم صلى وبارك عليه . .

فاستطرد لابس البنش :

- بقا إحنا ولا مؤاخذة ناس صايمين ، والصايم له الحق فى التسالى . . ولا أنا غلطان ؟ !

وأردف أحد الأفندية :

- والله تكسبوا فينا ثواب !

وزاد آخر :

- لا . . وكمان يبقى زكا عن فطاركم . .

فأجابت الأسطى حميدة وهى تزجج حاجبيها بعود ثقاب :

- صوتى مبحوح شوية . .

فقال لابس البنش :

- صوتك المبحوح ده سلطان الطرب .

وقال أحد الأفندية :

- أنا عايز أسمع فى العشق قضيت زمانى لأن نعيمة المصرية . .

فقاطعته الأسطى حميدة صائحة باحتقار :

- يا دهوتى . . نعيمة المصرية تعرف تقول فى العشق قضيت !

فقال الأفندى بخبث :

- ما أنا بقول كده برده . .

وهزت سليم رأسها ثم قالت :

- يا حضرة الأفندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمة المصرية . .

فأجاب الأفندى :

- أيوه ما هو أنا ناوى ما اسمعهاش .

وصادقت الأسطى حميدة على قول سلم برأسها ثم صاحت بحماس وخيلاء :

- قولى له . . قولى له . . أنا مين ؟! دا أنا حميدة المحلوية يامرغرطات . .

فصاح لابس البنش باحترام :

- مفهوم يا فندم . . ونعم . .

وفى أثناء حماس الأسطى حميدة انحدر رأس ملايتها بدون أن تشعر فظهر الصفا الذهبى البراق الذى يزين شعرها كما ظهر منديل الترتر فى مقدم رأسها يخطف الأبصار . . وتنبه الرجال إلى ذلك فأخذوا يختلسون النظر إلى شعرها بين فترة وفترة . . ولاحظت ذلك منهم فاطمة الرقاصة فأسرعت بتنبيه الأسطى مخاطبة إياها باللغة الاصطلاحية بين العوالم :

- أطسا . يا أطسا . أفصك نايب أى «أسطى يا أسطى . صفاك باين . . » ولكن الأسطى لم تسمع أو لم ترد أن تسمع متشاغلة بتزجيج حاجبيها بعود الثقاب . . ولاحظت نجية الطبالة أيضًا نظرات الرجال إلى شعر الأسطى فسرعان ما انضمت إلى زميلتها فاطمة فى تنبيه الأسطى :

- أطسا . أفصك نايب يا أختى . .

فلم تنتبه الأسطى . . وانتبه أحد الأفندية إلى هذه الجملة الغريبة . . فلم يفهم معناها وقال :

- أطسا . . أطسا دى فين ؟.. دى وجه قبلى . .

فقال لابس البنش :

- لا لا . . دول بيضربوا بالسيم . .

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الأسطى حميدة ولنظرات الأفندية لشعر الأسطى فصاحت بغيظ :

- ياختى ما تسمعى أمال . . أفصك نايب . .

ورددت نجية كذلك بغيظ وغيرة :

- ياختى الحق أفصك باين . .

فانتبه أحد الأفندية وقال ضاحكًا :

- أفص مين اللى باين ؟؟..

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

- يوه . . يا دهوتى . . شوفى ياختى . . قال بدى أقول أفصك نايب قلت أفصك باين . .

ثم ضحكت ضحكة رنانة . هى التى نبهت الأسطى فالتفتت ونظرت إليها شزرًا ثم قالت :

- هلْبت انسخطى لما ترقعى الصهلولة كده فى وسط الباجور . .

فقالت نجية :

- أصلى غلطت وأنا بضرب بالسيم قطيعة !

وعادت الأسطى حميدة إلى حاجبيها وعود الثقاب فقال لابس البنش بتوسل :

- يا أسطى حميدة . . أنا محسوبك . . التقل على الصايمين حرام . .

فأجاب الأسطى بتيه ودلع :

- حاضر . . من عينى . .

فقال أحد الأفندية :

- «فى العشق قضيت» . .

فأجابت الأسطى بدلال :

- حاضر .

فقال أفندى آخر :

- مش حاضر وبس . لا . . إحنا محاسبيك . .

فقالت الأسطى :

- من عينى . حاضر . .

فقال لابس البنش مشيرًا إلى العود :

- العود ما هو جنبك أهو يا أسطى حميدة . .

فأجابت بتقل :

- حاضر . . حالاً . .

ثم نظرت إلى نجية وقالت بصوت يسمعه الأفندية :

- آه . . ياما روحى بتشفشف على فنجان قهوة ساده . .

فقال لابس البنش :

- لك علينا يا أسطى حميدة لما نوصل بنها .

وقال أحد الأفندية منتهزًا الفرصة :

- مش نسمع «فى العشق قضيت» يا أسطى حميدة والا إيه ؟ إحنا نرجوك رجا خصوصى . .

فأجابت الأسطى بدلال وتقل بنت الكار :

- حاضر . امسكى الرق يا سلم . .

ثم نظرت إلى فاطمة وسألتها همسًا بالسيم :

- «بت يا فاطنة . . بصى فى وشى . . هلبت ما حاجب خفيف وحاجب تقيل ؟! . .

وفى هذه اللحظة حضر المفتش ليفحص تذاكر من ركب من قليوب . . فقال لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظة :

– مازادش عليكم حد .

فأجابته الأسطى حميدة وهى تخط حاجبها الخفيف بعود الثقاب . .

– ما زاد علينا الا الخطوط . .

فانصرف المفتش خشية أن تنقص هيبته بمزاج هذه الطائفة . .

وماكاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر . . حتّى دوى فى العربة صوت هيئة التخت بأكملها مع الآلات جميعها من عود ورق ودربكة :

«فى العشق قصيت رمانى
وهمى اليوم يسكفانى
آه أنظروا جسمى السقيم»

فوقف المفتش مبهوتًا ووقف كل القطار على رجل . .

يونيو سنة ١٩٢٧

(راقصة المعبد ١٩٣٨)

# الهدهد اليتيم

يا «معلم شحاته» !..

هكذا صاح «سليم أفندى» مناديًا فى عظمة ، ثم وضع بحركة متئدة متكلفة الوقار «لىْ الشيشة» فوق الطاولة ، وجعل يفتل شاربه العسكرى المدهون بمعجون «الكوزماتيك» ، متوخيًا فى حركاته وسكناته الظهور بمظهر الشخص المهم ، ذى «الحيثية» والاعتبار ، وهو بين آن وآخر يرسل نظرات خفية إلى شرفة منزل «الدكتور حلمى» ، وهى شرفة خشبية من النوع القديم ، مقفلة ذات نوافذ كنوافذ المشربيات التى ترى ببيوت الوقف فى شارع الخليج !..

وفطن «سليم أفندى» إلى أنه نادى «الحاج شحاته» فلم يلب النداء ، فأدار فى الحال رأسه العارى المعطر بأنواع الأطايب ، ونظر إلى داخل القهوة !.

كان الوقت ضحى ، والشمس قد اشتد وهجها ، غير أن «سليم» الجالس على

الرصيف خارج القهوة فى مكانه اليومى المعتاد ، لم يكن ليعبأ بحرارة الشمس !..
يدل على ذلك طربوشه المخلوع الموضوع على كرسى بجواره . . ولو أنه فى كل لحظة كان يخرج منديله الحريرى «الرخيص» من كم سترته ليجفف جبينه فى أناقة متصنعة وفى حيطة واحتراس ، حتى لا يهدم المنديل ترتيب شعره ، وحتى لا يمس أطراف شاربه المدببة .

صاح «اليوزباشى سليم أفندى» مرة أخرى مناديًا :

– يا «معلم شحاته» :

ولكن «المعلم شحاته» لم يسمع شيئًا على ما يظهر ، فقد كانت الغوغاء والجلبة داخل القهوة تصم الآذان ، وكان كل نداء يضيع بين قهقهة الزبائن وسعالهم وبصقهم ونفهم ، وزبائن «المعلم شحاته» ليسوا من طراز «سليم أفندى» ، لا من حيث المركز والمقام فقط ، بل من حيث المزاج والعواطف ، ومن حيث الظروف أيضًا !..

فإذا كان «سليم أفندى» يجلس منفردًا منعزلاً خارج القهوة مشتغلاً بالعواطف والأحلام الجميلة ، فإن باقى الزبائن داخل القهوة مشتغلون بالصخب ، ويكادون يهدمون عليهم المكان ، ذلك شأنهم فى كل يوم ، زبائن «الحاج شحاته» هؤلاء ؟.. كلهم متعارفون ، وكلهم يختلفون إلى هذه القهوة الصغيرة فى عين الميعاد ، كى يؤدوا فريضة لابد لهم منها ، فريضة الضحك ، وكأن هؤلاء الناس لا صناعة لهم غير الضحك ، وأنهم لم يخلقوا لغيره : فهم يقضون حياتهم كلها – على ما يبدو – فى القهقهة بين أنفاس التعميرة والقهوة السادة ، وهم دائمًا فى مجلسهم المعتاد ملتفون حول واحد منهم ، يظهر عليه الامتياز عليهم ، والتفوق والنبوغ فى مضمار النكت والمزاح ، فهم دائبوا النظر إليه ، حتى إذا ما فاه بكلمة . هذا المهرج الأعظم ، انقلبوا جميعًا ضاحكين مختنقين من الصخب والضحك .

سواء أكان لما فاه به معنى أم لم يكن ، كأنما هم يجدون فى مجرد الضحك والصخب لذة حسية ، ويمر «المعلم شحاته» وصبيانه هنا وهناك بينهم حاملين الطلبات ، وهم يضحكون ولا يدرون أحيانًا لماذا يضحكون ، كأنما قد سرت إليهم العدوى ، أو أنهم يقصدون زيادة التشويش والتهييص وإحماء الوطيس ، فما تمر دقيقة حتى يصفق «المعلم شحاته» براحتيه ، ويصيح فى الجميع صيحة لا مبرر لها . كأنما يود أن يبلغ الضجيج والانشراح أقصى قمته :

– وحدوه !.. اللى يصلى على النبى يكسب !

ولا يغطى صوته إلا نداء زبون :

– واحد زبيب يا جدع !..

أو صدى وقع النرد على الطاولة بقوة وعنف . فى أحد أركان المكان :

– درجى !.. شيش جهار !..

ولكن الصوت الأعلى دائمًا للمهرج الأعظم وزمرته المحدقة به كأنه معبود وسط عباد مؤمنين . . وهو يقول فيهم ويأمر وينهى :

– اسمع يا واد انت، وهو !..

فتعلو الأصوات :

– سمع . . هس !..

فيتكلم مازحًا الهزل بالغناء ، خالطًا الكلام العادى بالمواويل : فبينما هو يحدث من حواليه من المقربين همسًا عن ملاحظة عنت له أو عن شىء خاص ، إذا هو «فجأة» يرفع عقيرته بغير سابق إنذار :

– سبع سواقى بتملا لم طفوا لى نار !..

فيجيب الجميع :

– الله !..

– سبع سواقى بتملا لم . .

وهنا مر «المعلم شحاته» حاملاً طلبًا ، فقطع المغنى مواله ، والتفت إلى أعوانه ، وقال بصوت مسموع :

– سبع سواقى بتملا لم غسلت وش «المعلم شحاته» !..

فضحك الجميع على نغم الموال :

– ها . . ها . . هاو !..

وظلوا يضحكون حتى جفت حلوقهم ، وحتى أسكتهم صاحب الكلام ، ولم يستأ «المعلم شحاته» بل ضحك معهم ، ثم نظر إلى المهرج الأعظم نظرة عتاب و «عشم» وقال وهو يستأنف سيره بالطلب :

– طيب . . . طيب يا «حاج حسن» !..

وسمع «المعلم شحاته» صوتًا يناديه خارج القهوة ، فصاح :

– حاضر !.. حاضر !..

ثم مشى مسرعًا ، فاصطدم بكرسى ، وسقط الطلب على رأس زبون ، فانحنى يجمع بقايا الكوب من الأرض وهو يقول :

– صلى على النبى تكسب !...

وكأنه غير عابئ بالزبون الذى سال على وجهه وقفطانه ما كان بالكوب !..

وجعل الزبون يجفف وجهه بطرف قفطانه ، ويقول متذمرًا :

– أكسب إيه ؟.. مش تحاسب شوية !..

فرفع «المعلم شحاته» رأسه إليه ، قائلاً :

– صلى على «أبو فاطمة» يا جدع انت . . واللى خلقك دا زبيب !.. مين يطول يدهن وشه بزبيب ؟.. دا أحسن من مية القسيس يا جدع انت !!..

فضحك الجميع ، وطفقوا يضحكون معًا ذلك الضحك الطويل الذى

لا ينتهى ، كأنما هم مجاذيب !..

وفى الحقيقة من يدرى إن كانوا هم كذلك ، أو أنهم فقط قوم وجدوا النعيم فى الضحك جماعة !..

نفد صبر «سليم» ، أو الأصح أنه تصنع نفاد الصبر، فأتى بحركة غضب ناظرًا بطرف عينه إلى شرفة «الدكتور حلمى» ، وصفق بيديه الكبيرتين تصفيقًا كالرعد ، وصاح :

- يا «معلم شحاته» !.. خبر إيه يا «معلم شحاته» !..

ومرت بضع ثوان ، ثم ظهر صاحب القهوة خارجًا منها يقول :

- حاضر !..

وما كاد يتبين «المعلم شحاته» «سليم أفندى» حتى هرع إليه :

- سعادة البك !.. محسوبك !..

قال ذلك ، ووقف باحترام أمام زبونه النظيف المستديم ، وكأن «سليم» أعجبته هذه الوقفة الخاضعة ، فلم يأمره فى الحال بما يريد ، بل تركه يقف ، وأخذ يتمتع بهذا الاحترام وهو يفتل شاربيه ، غير غافل عن أن يرسل نظراته الخفية إلى الشرفة المعهودة !

وأخيرًا قال فى لهجة متئدة وقور ذات جلال ، وهو يومئ إلى الشيشة فى تثاقل الشخص ذى المقام :

- ولعة !.. بسرعة !..

واختلس نظرة أخرى إلى الشرفة ، ثم قال للقهوجى آمرًا :

- إنت لسه واقف !.. قلت لك بسرعة ! .

فوضع «المعلم شحاته» يده على رأسه المعممة باللاسة وقال :

- يا سلام يا بيه !.. أوامر سعادتك على راسى دى !..

وأراد أن يذهب كى يأتى بالطلب ، ولكن «سليم أفندى» استوقفه قائلاً . وعينه للشرفة :

– انت مش عارف أنا مين يا «معلم شحاته» ؟.. ما يغركش إنى لابس ملكى !..

قال ذلك بصوت مملوء عظمة ، فأسرع «المعلم شحاته» قائلاً :

– عارف !.. عارف !.. أهل الحسب والنسب والكرامة ، اللهم زيد وبارك !..

ثم مشى نحو باب القهوة ، وهو ينادى صائحًا :

– ولعة للشيشة بره !..

ودخل القهوجى ، وعاد «سليم» إلى الشيشة ، فأخذها ووضع طرفها فى فمه ، ثم رفع رأسه وأرسل الدخان فى الفضاء ونظر بملء عينيه هذه المرة إلى شرفة منزل «الدكتور حلمى» ، وثبت نظراته ، ولكنه ما لبث أن خفض بصره يائسًا . إنه لم يلمح ظل إنسان فيها : لا رجل ولا امرأة !..

سئم «سليم» أخيرًا ، وأخذ يتمتم بألفاظ الضيق والاستياء ، وأخذه نوع من التعب فجعل يتثاءب ، وله فى ذلك حق ، فقد مضى عليه نحو ثلاث ساعات ، وهو مرهون فى مكانه بالقهوة ، يتحرك بجسمه الضخم ، كأنه قنطار من القطن ، فكم من مرة نظر إلى الشرفة عبثًا ، وكم من مرة صفق بيديه كالرعد للمعلم شحاته وصبيانه ، صائحًا بها فى لهجة ، يحرص دائمًا أن تكون آمرة ناهية كلهجة المأمور !.. ولم يختص صاحب القهوة وغلمانه فقط بهذا الأمر والنهى ، بل إنه لم يترك مساح أحذية يمر بالشارع منذ ثلاث ساعات دون أن يناديه فى سلطة صائحًا :

– يا ولد .. تعال نفض الجزمة !..

ويمد له قدمه قائلاً :

– نفض كويس !.. انت مش عارف أنا مين ؟!

ولم يدع بائع جرائد يقع عليه نظره ، دون أن يقول :

– اسمع يا ولد !.. معاك بورص ؟.. والا هات أهرام ، علشان أقرأ أخبار الترقيات والتنقلات !..

ولا يرى بائعا متجولا حتى يستوقفه :

– تعال يا جدع انت وريني حمالات شغل ألمانيا . . لكن لا . . لا . . لا ! . . دا شغل نصب . . أنا لا ألبس إلا من عند «سمعان» !.. روح يا جدع !..

والغرض أن يتكلم ويرفع صوته مدويا ، وينظر بين الفترة والفترة إلى الشرفة ! ! . .

ولكن مع الأسف ، كل هذه الأساليب ما كانت لتسترعى انتباه أحد ، اللهم سوى زبون كان جالسا خلف «سليم أفندى» تماما ، ولعله جاء دون أن يشعر به . .

ويظهر أن هذا الزبون ما كانت تفوته حركة من حركات «سليم» ، بل إنه – على ما يبدو من اهتمامه وابتسامه المكتوم – كان يسر ويلتذ ويضحك فى نفسه لما يرى ، كأنما هو يشاهد قصة مسلية ، لم يكن هذا الزبون الشاهد سوى «مصطفى بك» ، الجار القاطن بالدور الأسفل لدور «سليم» وشركائه !.. ومع ذلك لو أن «سليم» أخطأ النظر مرة واحدة ، وسدد عينيه إلى المنزل الآخر الملاصق لمنزل الدكتور – إلى المنزل رقم ٣٥ : أى منزل «الشعب» – للمح فى إحدى نوافذه شبح امرأة ، تلقى نظراتها القانطة هى الأخرى نحو القهوة منذ عشرين دقيقة ، ولاستطاع كذلك أن يسمع صوت الجلبة والضوضاء التى ما فتئت تحدثها تلك المرأة فى نافذتها ، بحجة وضع القلل الفخار ، ذات الأغطية النحاسية !..

لم ير «سليم» شيئا من هذا !.. ولعل «مصطفى بك» لم يلمح هو الآخر شيئا . فإن اشتغاله بمشاهدة «سليم» وحركاته وأحواله ، وحرصه على تلك المشاهدة

والملاحظة . منعه من النظر إلى النافذة المذكورة وما يجرى فيها !..

اشتد الحر ووهج الشمس مما اضطر «سليم» إلى لبس طربوشه ، وألقى نظرة أخيرة على الشرفة ، ثم أخرج ساعته وطالعها ، فإذا هى لم تتجاوز الحادية عشرة . وأفراد «الشعب» لا يعودون لتناول الغذاء عادة قبل الواحدة بعد الظهر ، فماذا يفعل بالوقت !.. أيظل جالساً أم ينصرف !.. وإذا انصرف فإلى أين ؟.. تردد وتحير !..

ومر بخاطره كالبرق خيال «قهوة الجندى» يوم أن كانت محله المختار ، وتذكر تلك الفاتنات الإفرنجيات اللاتى كن يترددن على الطابق الأعلى ، وكيف أنه كان – على حد زعمه وتصوره – محبوباً بين هاته الظباء النافرة ، يتهافتن عليه وينظرن بإعجاب إلى شواربه المفتولة «الزنهار» ، ولكن ، وا أسفاه !.. لعن الله القلب المصاب الذى حمله على المجىء إلى «قهوة شحاته» الحقيرة ، يمكث فيها طول النهار ، ينظر بعيون مرتفعة إلى السماء ، كأنه عابد وثنى لشرفة لا روح فيها !..

تثاءب مرة أخرى ، ثم مد يده فى حركة متراخية ، وتناول جريدة على الطاولة ، وحاول القراءة ، غير أن إحدى عينيه كانت دائماً خارج الصحيفة . تنظر فى كل جهة ، وتبدو فى محجرها قلقة ، كبلية فى فنجان ، وتستقر أخيراً على الشرفة المعهودة !..

مرت لحظة وهو على تلك الحال ، وأخذ ينظر أمامه فى انتباه ، ذلك أنه رأى «مبروك» الخادم يخرج من المنزل ، حاملاً تحت إبطه «بقجة» صغيرة ، ولكن ما استرعى انتباهه واهتمامه أن «مبروك» يلبس قفطان الطلعة ، ثوبه النظيف الوحيد الذى يدخره لأيام الأعياد والمواسم والموالد ، ثم شىء آخر أغرب وأهم : أن «مبروك» يتوجه بكل هذا إلى منزل «الدكتور حلمى» !..

والواقع أن «مبروك» بعد أن ظهر بالباب ، وألقى على الشارع نظرة شاملة ،

أدار وجهه وخطا بضع خطوات نحو المنزل المجاور المحبوب ، وهو يتمتم مغنيًا :

— «وانا مالى . . ما هى إللى قالت لى» .

عندئذ نهض «سليم» نصف نهوض ، وصاح :

— يا مبروك ! !..

فالتفت إليه الخادم وابتسم ، ولكنه لم يقف ولم يلفظ كلمة ، بل استمر يغنى :

— «روح اسكر ، وتعال ع البهلى !. »

فقام «سليم» على قدميه . وجعل يصيح ، ويشير إشارات قوية :

— هس !.. اسمع أما أقول لك يا «مبروك» !.. اسمع أما أقول لك . . كلمة واحدة وروح !. . .

فلم يرد عليه «مبروك» بل وقف ونظر إليه وهو يغنى ، ثم أدار له ظهره ومضى ، وصار يمشى كأنه يرقص ، حتى بلغ باب منزل «الدكتور» ، فوقف على عتبته والتفت إلى «سليم» ، وغمز له بطرف عينه ولعب حاجبه ، ثم دخل توًا

فزمجر «سليم» ، ودمدم بين أسنانه :

— أما حيوان صحيح !..

ولم يفت «مصطفى بك» الجالس خلف «سليم» شيء من كل ذلك ، فابتسم ، ومضت عشر دقائق ، وإذا امرأة ملتفة فى إزار أسود ، قد ظهرت على عتبة المنزل رقم ٣٥ : أى منزل «سليم» ، ووقفت هذه المرأة لحظة ساكنة جامدة ، تنظر إلى القهوة نظرات مسددة طويلة ، من عينين تبرقان على جانبى قصبة البرقع النحاسية ، ثم فى حركة فجائية تدل على السأم والغضب ، أدارت ظهرها للقهوة ، ومشت فى شارع «سلامة» متجهة إلى ميدان السيدة زينب !..

ما كاد يراها «سليم» حتى نهض ناسيًا جرائده وعصاه فوق الطاولة والكراسى ، وأسرع فى أثرها فلحق بها بعد ثلاث خطوات من خطاه الواسعة ، وهى تسير أمامه

بجسمها المهتز المترنح ، فى تؤدة وتمهل ، كأنها الحمل .

فتل «سليم» شاربيه بسرعة ، وتقدم مقترباً منها حتى حازاها فتنحنح وقال هامساً :

— يا سلام على كده !.. يا قشطة بلدى !.. خدامك يا هانم .. عربية والا أوتومبيل ؟...

فعرفت صوته فى الحال ، فوقفت ، والتفتت إليه ، وقالت فى شىء من الحزن وخيبة الأمل :

— هو انت بسلامتك ؟!..

— «زنوبة» ؟!..

فابتسمت تحت البرقع فى كآبة .. وبغير أن تعبأ بانتظار جوابه أخذت تختلس نظرات قلقة ، إلى قهوة شحاته خلفها ، كأنما تبحث عن شىء عن شخص !..

وأحس «سليم» الحيرة لهذا الموقف ، فقال مرتبكاً وهو يحاول إخفاء ذلك بالضحك :

— ها .. ها .. الله يجازيك !.. أنا كنت فاكر .. نهايته بقا .. إنت رايحة فين ؟..

فقالت «زنوبة» وهى شاردة الفكر ، غائبة الذهن :

— أنا ...!؟

وكأنما تذكر «سليم» عندئذ سؤالاً هاماً فأسرع يقول :

— على فكرة .. الولد «مبروك» دخل دلوقت بيت «الدكتور» !.. وانتظر منها إجابة أو تفسيراً . ولكنها ظلت صامته ، ثم قالت أخيراً وهى ساهمة ، وعيناها تفتشان بين مقاعد القهوة فى آخر الشارع :

— مين ؟..

فنظر إليها مليًّا :

– مين ازاى ؟.. بقول لك «مبروك» !..

فعادت إلى نفسها ، والتفتت إليه وقالت :

– مبروك ؟.. ماله ؟.. ما هو راح فى مشوار

– مشوار ... !؟

– آه . . راح يرجع فستان «سنية حلمى» ، اللى كنت قاعدة أفصل عليه !..

فاقتنع «سليم» وسكت قليلاً ، ثم عاد يقول بصوت غريب :

– ومشوار زى ده خطوتين اثنين ، يلبس له الحيوان ده قفطان التشريفة بتاعه ؟!..

فأجابت «زنوبة» بعدم اكتراث :

– هو دايماً كده نهار ما يروح هناك !..

فحملق فيها «سليم» :

– عجيبة . . بقا هو دايماً كدة نهار ما يروح هناك . !؟

فقالت «زنوبة» وهى لاهية :

– له حق . . ما يحبش يروح للناس وسخ !..

فدمدم «سليم» فى غير تصديق :

– صحيح . . فى محله . . نهايته . . إنت رايحه فين ؟..

فترددت «زنوبة» ، ونظرت إليه ، وارتبكت قليلاً ، ثم قالت :

– أنا ؟.. أنا عايزه أروح عند . . «زهرة» الخياطة .

فسألها «سليم» :

– هنا فى البغالة ؟!..

فأجابت بسرعة :

— آه . . .

فأتى «سليم» بحركة لينصرف ، وقال وهو يبتعد عنها :

— طيب بقا . . أما ارجع أنا . . وابقى سلمى لى على «زهرة» إن كانت حلوة وتفصيلها حلو !..

ثم استدار ، ومشى عائداً إلى مكانه بالقهوة .

لبثت «زنوبة» لحظة جامدة ، وكأنها مترددة ، وكأن نفسها فريسة لشيء خفى ، وجعلت تفكر كما يتاح لمثلها ولمن له عقليتها أن يفكر . ولم تدر ماذا تصنع . فألقت نظرة أخرى على القهوة ، ثم أرجعت بصرها خائبة الأمل ، وسارت ببطء متجهة إلى ميدان السيدة زينب ، وما أن وصلت إلى الجامع ، حتى وقفت وأرسلت عينيها من خلال قضبان نافذة الضريح ، وحدقت فى مقام بنت بنت رسول الله ذى النقوش الفخمة ، ثم طفقت ترتل فى سرها وفى حزن ، سورة الفاتحة للسيدة الطاهرة . . وميدان «السيدة زينب» محطة رئيسية لمركبات «أمنيبوس سوارس» والمار به لا يلبث أن يخترق أذنيه من حين لآخر صوت العامل أو السائق يصيح :

— يلله «الموسكى» !.. «السيدة نفيسة» . . «الموسكى» . . «موسكى» . . «موسكى» !..

وكانت «زنوبة» أول من نبهه هذا الصوت ، ووجهت كلمة «الموسكى» فكرها إلى شيء فى رأسها ، فترددت لحظة ، ثم فجأة استقر عزمها فمشت بقوة إلى مركز «الأومنيبوس» ، وصعدت مسرعة إلى أول عربة متهيئة للسير .

مرت نصف ساعة و«سوارس» تخرج وتدخل فى شوارع وحارات عتيقة ، مخترقة الأحياء القديمة لمدينة القاهرة ، حتى وصلت أخيراً إلى الموسكى ، فنزل من

الركاب من نزل واشرأبت رقاب الباقين فى العربة إلى الخارج ، ينظرون على جانبى الطريق إلى المتاجر والدكاكين التى لا عدد لها ، وقد عرضت بضائعها التى تبهر الأنظار من أقمشة من الحرير والقطيفة ، مزركشة بالقصب اللامع و «الترتر» البراق ، ومن مصوغات ذهبية حقيقية وقشر سمكة ، ومن أحذية وشباشب «بكعب» و «زحافى» على آخر طراز . ومن خردوات ودنتلات وبياضات لزوم البيت ، وأوان نحاسية وأخرى من الصينى ، وملاعق ومغارف خشبية ومعدنية ، وبالاختصار كل شىء موجود فى هذه السوق المشهورة .

وكان الزحام شديداً كالمعتاد و «سوارس» تلقى صعوبة فى شق طريقها بين أمواج الناس المجتمعين كالنمل ، فى شارع «الموسكى» الضيق ، يعلو صياحهم ، وتشتد حركتهم وضجيجهم ، كلهم تجار وباعة ومشترون ومتفرجون ، فالتجار والباعة يصيحون منادين على بضاعتهم متنازعين الزبائن ، بخالب أقوالهم ، ورخص أثمانهم ، وحلفهم وقسمهم بالشرف والإيمان على جودة الصنف وعلى أنها فرصة حقيقية و «أوكازيون» على ذمة «الخواجة» !..

والمشترون – نساءً ورجالاً – يشاهدون ويجادلون ويمارسون ، متناولين الأقمشة بين أيديهم يفركونها ويفحصون متانتها فى عنف ، ثم يساومون ويناقشون ، فتعلو الأصوات ، ويكثر القسم ، ويشتد الشد والجذب ، ويسيل العرق على الجباه والوجوه ، ويضاف على هذا الهرج والمرج صوت صناجات بائع العرقسوس يزاحم الناس بقدرته الحمراء على بطنه ، وإبريقه النحاسى فى يده ، ولوح الثلج المركب فوق القدرة لا يبرد شيئاً ولا يصل إلى الشراب وإنما وظيفته مجرد الإعلان : «حاسب على أسنانك !.. أنا بياع الشربات .. ماليش دعوى بسنانك !..» ثم يدق دقة بصنوجه أو يملأ كوباً لزبون ، ثم يصيح فى لهجة أخرى : «الصبر جميل !.. فقر بلا دين هو الغنى الكامل !.. سنانك حاسب !..» .

ظل ركاب «سوارس» يشاهدون هذا كله من نوافذ المركبة، إلا «زنوبة» فإنها وحدها لبثت جامدة ساكنة، لا تعبأ فى هذا اليوم بالموسكى وما فيه، ولم تتحرك ولم تصحُ من تفكيرها وما يشغل بالها إلا عندما حان محل نزولها!.. وكان عند سيدنا الحسين، حيث وقفت «الأمنيبوس»، فنزلت «زنوبة» وكأنما كانت على علم تام بالجهة التى تقصدها، فإنها ما كادت تطأ الأرض حتى جعلت تسير فى هذا الحى من شارع إلى آخر، ومن حارة إلى حارة، لا تلوى على شىء، ولا تضيع ثانية واحدة!..

فى قلب هذا الحى.. عطفة سد صغيرة مظلمة، ولا يمكن لغريب عن الناحية أن يهتدى إليها بمجرد المصادفة. إلى هذه العطفة كانت زنوبة تسير.. وبلغتها بعد مسير ربع ساعة، ووقفت بباب منزل هو الأخير من الجهة المسدودة!..

ترددت «زنوبة» قليلاً ثم طرقت الباب برفق، ومرت لحظة ثم فتح الباب، وظهرت خلفه امرأة عجوز، وجعلت تنظر إلى «زنوبة» فى تقطيب نظرة المتسائل، فقالت لها «زنوبة» فى شىء من الخجل:

– جايه للشيخ «سمحان»!..

فأفسحت لها العجوز طريقًا، وأجابتها فى خشونة..

– أدخلى من هنا!..

دخلت «زنوبة» وأغلقت العجوز الباب وراءها، ثم قادتها إلى حجرة واسعة قليلة الأثاث وأشارت إلى شلتة على الأرض خالية بجوار امرأة ترضع طفلها، ثم قالت لزنوبة:

– اقعدى استريحى لمّا ييجى دورك.

وانصرفت من باب فى صدر المكان.

جلست «زنوبة» على الشلتة وأخذت تجيل النظر فيما حولها ، فرأت نسوة جالسات على الأرض مثلها ينتظرن أيضًا نوبتهن وكن كلهن مجتمعات ، ووجوههن إلى باب الصدر ، وقد لبثن صامتات يحدقن بعيونهن فى ذلك الباب . كما لو أنه باب الله !.. وكان يرتسم على ملامح هاته النسوة معنى واحد ، حتى ليخيل للرائى أن فكرة واحدة تجول فى رءوسهن كلهن ، وتوحدهن جميعًا كأنهن فى صلاة الجمعة حيث تنفصل النفوس فى لحظة من أجسامها المختلفة ، وتنسى كل روح حياتها الخاصة ، لتجتمع كلها وتذوب جميعها وتنصب فى شيء واحد : «المحراب» ونسيت «زنوبة» نفسها لحظة تحت تأثير ذلك الشعور الذى كان يخضع له باقى النساء ، ولبثت جامدة صامتة وقتًا ، تنظر مثلهن إلى باب الصدر !..

وأخيرًا التفتت فى هدوء ولطف إلى جارتها ، المرأة ذات الطفل ، وهمست فى أذنها سائلة :

– إنت جاية للشيخ يا ادلعدى !..

فنظرت إليها المرأة وأجابت :

– أيوه يا ختى !..

ثم قدمت لطفلها ثديًا كضرع البقرة ، وأضافت وهى تشير إليه برأسها :

– علشان الولد بعيد عنك !..

فاقتربت «زنوبة» بشلتتها من المرأة ، ثم مالت نحو الطفل فى رفق وقالت :

– اسم الله عليه . . ماله ؟..

فرفعت المرأة غطاء أزرق ، كان يغطى وجه ابنها الصغير ، ثم أجابت :

– عينيه !.. ربنا ما يوريلك . . شوف !..

ألقت «زنوبة» نظرة على عينى الطفل التى كاد يأكلها الرمد ، قالت :

– مش رحت به للحكيم ؟..

فرفعت المرأة رأسها ، والتفتت إلى «زنوبة» التفاتة المحتج ، وقالت بصوت المعرفة والثقة :

- حكيم ؟!.. هم ياختى الحكما بيعرفوا حاجة ؟!.. دا أنا ماخليت شىء إلا جربته . . ياما وصفوا لنا ياختى !. ربنا هو العالم . . فيه بقا أكثر ولا أقوى من العسل الأسود ، وكحل البنت ، والششم المغربى ، والدود العلق . . لحد - اسم الله على مقامك - لبخة سبلة الحمار السخنة . . وكل ده لا نفع ولا شفع . . تقولى إيه . .

فسكتت «زنوبة» لحظة ، ثم سألتها فى بساطة :

- والشيخ «سمحان» يعرف فى العنين ؟..

فمصمصت المرأة بفمها أسفًا لجهل «زنوبة» ، وقالت وهى تهز رأسها المغطاة بالملاءة السوداء :

- يعرف ؟.. بتسألى يعرف والا ما يعرفش ؟!.. دانت باين عليك ياختى ماسمعتيش به . . ياندامة !.. بقا اللى دلك على «الشيخ سمحان الأسيوطى» ما قال لكيش على كراماته ؟!..

فقالت «زنوبة» فى أدب :

- قالوا لى كثير . . لكن أنا لسه ما جربتش !..

فقاطعتها المرأة ، واندفعت تقول :

- لا يا أختى دا مجرب . . فيه أكثر منى أنا . . قبل ما أحبل فى الولد ده ، كنت بعيد عنك ما باحبلش ، وياما عملت علشان الحبل . . يادهوتى على اللى جرى لى . . الراجل جوزى نفسه فى الخلف ، ويصبح ويبات يقول لى : ياولية يا تحبلى يا أروح اتجوز عليك ، وأجيب لك ضرة ، قولى لى بقا يا أختى أعمل إيه ؟.. الرب هو العالم ، لا خليت طب ولا دوا ، ولا سحر ولا عمل . كله

وحياتك ما فاد وعاد !.. ولا يوم من أيام جارتى «أم حسنين» إلهى يمسيها بالخير . قالت لى قومى ياختى روحى لواحد اسمه الشيخ «سمحان» ورا «سيدنا الحسين» ، الناس بتحكى لى عنه وتقول . . والله وحياتك ماكدبت خبر . . تعرفى مسافة ماكتب لى الحجاب ولبسته ، وفات شهر والشهر اللى هل ، حسيت ببطنى رقعت بالزغروط . .

فسألتها «زنوبة» تطلب التأكيد بلهجة استغراب ساذجة :

– جالك الحبل ؟!..

فأجابت المرأة على الفور :

– أمال يا اختى !.. الحبل عقبال أملتك !.. بعد الحجاب بشهر !.. عايزة إيه بقا أكثر من ده ..!

وهنا فتح فجأة باب الصدر ، وظهرت بالعتبة المرأة العجوز ، وأشارت إلى المرأة ذات الطفل قائلة بصوتها الجاف :

– يلله قومى . . دورك إنت وابنك .

فانحنت المرأة على طفلها ونظرت إليه ، ثم التفتت إلى «زنوبة» وقالت :

– يا أختى الولد نعسان . . طول ليلة امبارح ياكبدى ما داق النوم . . إن كنت مستعجلة ياختى قومى إنت بدالى !

وأخذت «زنوبة» فى اهتمام تتبعها بعيون تنم عن صبر نافد ، وقد مدت عنقها ووجهت أذنيها هى الأخرى علها تسترق بضع كلمات !..

فنهضت «زنوبة» بسرعة ، وشكرت المرأة ودعت لها الله والنبى و «سيدنا الحسين» ، كى يأخذوا بناصرها ويمنوا بالشفاء على ولدها ، ثم أسرعت إلى الباب ، وتبعت العجوز . .

ما اجتازت «زنوبة» عتبة باب الصدر ، حتى وجدت نفسها فى حجرة

الشيخ ، وهى حجرة مربعة الشكل ، ضئيلة النور . ليس بها من نوافذ إلا طاقة مشبكة بالحديد قرب السقف ، ولا من أثاث إلا بضع «شلت» على الأرض . حول خوان صغير ، فوق سجادة عجمية عتيقة .

وفى وسط تلك الحجرة يقوم ضريح «الشيخ سمحان» ولم يكن ضريحاً بالمعنى المعروف ، وإنما شيء كالقفص محجوب عن الأنظار بغطاء أسود كثيف ، وعلى سطحه صف من شمعدان نحاسى قديم ، وله باب صغير كالكوة ذو قضبان فى لون الذهب ! .

عند ذلك الباب الذهبى للضريح أو القفص ، كانت تجلس امرأة فى متوسط العمر ، سمينة ، ولكن فى وجهها بعض ملاحة ، هذه كما يقولون امرأة الشيخ ، فهى وحدها التى تتصل به بواسطة هذا الباب الذهبى الصغير ، وهى التى تنقل كلامه الخفى إلى الزوار السائلين . . ولكن الشيخ نفسه ، لم يره أحد قط ، كيف ولماذا هو محبوس فى هذا القفص أو الضريح ؟.. لا أحد يعلم . . ولعل أحداً ما تساءل على ذلك . . كل ما يعرفه الناس أن الشيخ «سمحان الأسيوطى» ذو قوة خفية وأسرار حقيقية ، وأنه على اتصال دائم مع «بسم الله الرحمن الرحيم» أهل تحت .

وقفت «زنوبة» جامدة تنظر إلى الضريح إلى أن أشارت لها «امرأة الشيخ» إشارة صامتة ، تدعوها إلى الاقتراب والجلوس على إحدى الشلت المجاورة لها ، فجلست «زنوبة» حيث أشير لها ، وعندئذ نظرت المرأة إليها فى تحديق ، ثم سألتها بصوت متزن خافت :

– شاورت نفسك ؟..

فسكتت «زنوبة» لحظة ، ثم أجابت فى تردد :

– أيوه – لكن بس . .

فقطبت المرأة جبينها الذى تكاد تخفيه «قطة» المنديل الكحلي ثم قالت :

– لكن بس إيه ؟؟..

فأجابت «زنوبة» فى خجل :

– جنيه !.. غالى !..

فرسمت المرأة على شفتيها ابتسامة احتقار ، وقالت :

– غالى ؟!.. جنيه واحد غالى !.. علشان اللى فى بالك تنوليه ؟.. أمال لوكنت قلت لك خمسة جنيه زى الست اللى لسه خارجة قبلك !..

فقالت «زنوبة» بصوت خافت :

– والنبى لو كنت غنية ماكنت أتأخر ؟

فقالت امرأة الشيخ فى رفق :

– صلى على النبى يا أختى . . إنت فاكره الفلوس دى أنا طالباها لنفسى ؟.. فاكره دى حاجة رايحة تدخل جيوبنا . . ! أبداً وحياة راسك . . احنا مش محتاجين . . بعد الشر . . يا سلام !.. الجنيه بتاعك يا اختى رايحين نشترى لك به اسم الله عليك ، خروف أبيض من غير إشارة . . وندبحه على اسمك هنا على الباب ده ، وندهن العتبة بدمه . . على الله ببركة الأسياد اللى سمعينا ينفتح لك باب السعد والهنا !..

فدق قلب «زنوبة» فجأة للكلمتين الأخيرتين ، وخفضت نظرها لحظة فى حياء ، ثم عاد إليها الهدوء والسكينة ، فأخرجت منديلها من صدرها ، وفكت عقدة فى طرفه وتناولت جنيهاً من بين نقود أخرى بالمنديل ، ووضعته على الخوان الصغير بيد مرتجفة وهى تقول :

– بس خروف ؟. مفيش حجاب ولا حاجة ؟؟..

فأجابت امرأة الشيخ وهى ترمق الجنيه على الخوان بطرف عينها :

- أمال يا اختي أمال . . حجاب وبخور وتبييت أثر . . أنا عارفة بخورك ما تخافيش : فسوخ وشبه وجنزارة وعنزروت وفرفارة ورمش عين الجان ! .. لازم لك حجاب تلبسيه دايماً ولا تقلعيه أبداً حاكم انت اسم الله سلطانى دقتك خفيفة . . اصبرى كمان لما أسأل لك الشيخ . .

وقربت فمها من الكوة أو الباب الذهبي ، ونادت :

- يا «شيخ سمحان» ! ..

وعندئذ سمع صوت ضعيف ، كأنه جثة مقبورة فى يوم الحشر ، ينبعث خافتاً من أعماق الضريح المظلمة ، فالتفتت المرأة إلى «زنوبة» بسرعة وسألتها :

- قولى لى قوام اسمك واسم أبوك وجدك ؟..

فردت زنوبة على عجل :

- اسمى «زنوبة بنت رجب بن حمودة» ! ..

فعادت المرأة إلى باب الضريح ، وصاحت :

- يا «شيخ سمحان» ! .. اسمها «زنوبة بنت رجب بن حمودة» . .

وساد سكون هائل عميق دام لحظةً ، ثم فجأةً . . عاد ذلك الصوت الضعيف البعيد غير الجلىّ ، وألصقت المرأة أذنها على الباب الذهبي ، وجعلت تنصت بانتباه .

ولم تلبث المرأة أن فرغت وتركت باب الضريح ، وأقبلت على «زنوبة» تفضى إليها بالنتيجة ! ..

- اسمعى ! .. الشيخ بيقول عايز أثَر من شعره ! .. بس على شرط يكون من صحن الرأس عند مفرق الشعر ! ..

فدمدمت «زنوبة» بصوت خافت فى خجل واضطراب :

– شعر مين ؟!..

فنظرت إليها المرأة فى خبث وقالت :

– شعر مين ؟!.. شعر اللى فى بالك !..

فدمدمت «زنوبة» مرددة وكأنما تقول لنفسها :

– أتر من شعره ؟!..

فأضافت امرأة الشيخ مؤكدة :

– من صحن الرأس عند مفرق الشعر . . إياك تنسى . . إن كنت شاطرة . قولى للمزين اللى بيحلق له واغمزيه يجيب لك طلبك . اسمعى كمان ياختى . . الشيخ بيقول لك كمان «قلب هدهد» يتيم !..

فسألت زنوبة مستفسرة بصوت ساذج :

– قلب هدهد ؟..

فقالت المرأة مؤكدة :

– يتيم . . قلب هدهد يتيم . . إوعى تنسى .

فسألتها «زنوبة» :

– وبس خلاص ؟؟..

فأجابتها امرأة الشيخ :

– هاتى دول الأول . . الحجاب المعمول من دول عمره ما يخيب . الشيخ قال من تحت . . وهو أعلم بالسر والكرامة ، كل من كان ، راجل والا حرمة ، لبس دى الحجاب ، يصبح يلقى اللى فى باله تحت رجليه !.. فاقتنعت «زنوبة» ، وتورد وجهها !..

(عودة الروح ١٩٣٣)

# الطفيلى والبخيل

جاء العصر و «أشعب» يتسكّع فى الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين «الكندى» ، فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالسًا ، تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلاً فيه لحم «سكباج» بارد وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أربع بيضات ، فاقترب منه ومرّ به مسلمًا عليه ، فردّ «الكندى» السلام قائلاً :

هلمّ عافاك الله !..

وإذا «أشعب» أسرع من خطف البرق فى صحن السماء ، قد انثنى راجعًا يريد أن يعدّى جدول الماء ، فصاح به «الكندى» وهو يأكل :

مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان !..

فوقف «أشعب» مأخوذًا .. فسأله «الكندى» :

تريد ماذا ؟..

فأجاب «أشعب» :

أتريد أن أتغدى !..

فحملق فيه «الكندى» وقال :

ولم ذلك ؟.. وكيف طمعت فى هذا ؟.. ومن أباح لك مالى ؟ .

فقال «أشعب» :

أو لست قد دعوتنى ؟..

فأجاب «الكندى» :

ويلك !.. لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام . . ماذا كان بيننا غير سلام ، وردّ سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .

وازدرد الرجل بيضةً ممّا بين يديه ، وجعل «أشعب» ينظر إليه لحظةً ، ثم قال له :

لقد رأيتك تأكل وحدك !..

فبلع «الكندى» ريقه ، ثم قال :

ليس علىّ فى هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكلّف ، وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل ، وإذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء ، فإن جليس السوء خير من أكيل السوء ، لأن كل أكيل جليس ، وليس كل جليس أكيلاً !..

فقال «أشعب» متخابثًا :

إنما أردت أن أؤاكلك ، لأسخيك ، وأنفى عنك اسم البخل !..؟

فأجاب «الكندى» وهو يلقى فى حلقه زيتونة :

لا أعدمني الله هذا الاسم ، فإنه لا يقال : فلان بخيل إلاّ وهو ذو مال . فسلّم إليَ المال ، وادعني بأى اسم شئت !..

فقال «أشعب» :

ولا يقال أيضًا : فلان سخىّ إلاّ وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم ، فأنت قد اخترت أخسّهما وأوضعهما .

فقال «الكندى» :

بينهما فرق !..

فقال «أشعب» :

ما هو ؟..

فأجاب «الكندى» :

فى قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال فى ملكه . فالبخل اسم فيه ذمّ ولكن فيه حفظًا ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعًا ، والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، أمّا الحمد فهو ريح وسخرية والاستماع له ضعف !.. وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن ، وعرى الجلد ، وضاع العيال ، وشمت الحساد ؟!..

وظلّ يأكل ، و «أشعب» ينظر إليه ، حانقًا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم . الذى لا ينفع فيه حيلة . غير أنه تلطّف له ، ودنا منه قائلاً :

وما عليك لو جلست إليك ساعةً أغنيك حتّى تطرب ، وأضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب ؟..

فصاح «الكندى» :

لا أريد أن أطرب الساعة ، ولا أن أضحك ! .

— وما يمنعك من ذلك ؟..

— يمنعني منه أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا طرب وضحك !..

فأسقط فى يد «أشعب» ، ولم يدر أىّ مدخل إلى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له بابًا أغلقه ولم يقنط «أشعب» مع ذلك ، وخطر له خاطر أعجبه ، فأسرع يقول لصاحبه :

لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية ، وقبل دفع الأجر ، وقضاء الحوائج ، والوفاء بالشرط . .

فأبرقت أسارير الرجل ، ووضع اللقمة من يده ، وقال :

وأين رأيت أن أدعوه . . متى ؟..

— الليلة إلى عشائك !..

— عشائى ؟! .

وعاد إلى قطوبه . فأراد «أشعب» أن يهوّن عليه الخطب ، فقال له :

لا تتكلّف شيئًا لهذا الضيف ، إنه يرضى بما حضر !

فأسرع «الكندى» يقول :

ليس يحضر شيء ، وقولك «بما حضر» معناه أنه لابدّ من أن يقع على شيء . .

فقال «أشعب» :

قطعة مالح . .

— قطعة مالح أليست هى شيئًا ؟..

— نكتفى بالشرب إذن على الريق . . .

— لو كان عندنا نبيذ كنا فى عرس . .

— أنا أحضر النبيذ !..

فقال «الكندى» للفوز :

إذا صرت إلى إحضار النبيذ ، فأحضر أيضًا ما يصلح للنبيذ . .

فقال «أشعب» :

ليس يمنعني والله من ذلك ، ومن إحضار النقل والريحان إلاّ أن أحسب أنا صاحب الدعوة ، وليس يجوز ذلك ، إلاّ أن يكون لك فيها أثر . .

ففكّر «الكندى» لحظةً ، ثم صاح ، كمن وجد الفرح :

لقد انفتح لى باب لكم فيه صلاح ، وليس علىّ فيه فساد . .

والتفت إلى نخلة عالية ملساء ، كأنها ثعبان ، قائمة فى طرف من أطراف البستان وقال :

فى هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وإن نحن وجدنا إنسانًا يصعدها ، ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد «طباهجة» والآخر «كردجا» فكان نعم العشاء ، فهل لك يا «أشعب» فى صعود هذه النخلة ! . .

فنظر «أشعب» إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :

هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلاّ إذا كان اليوم آخر عمرى ، وأردت من ذلك دقّ عنقى ، اللهم أغننى عنك ، وعن طعامك يا شيخ ! . .

وأراد أن ينصرف يائسًا ، ولكنه فكّر فى أمر عشائه ، وليس فى المدينة الليلة وليمة ولا عرس ، ينسلّ إليه ، فعاد ينظر إلى النخلة ، فرأى مرّة أخرى أن علوّها الشاهق يملأ النفس رعبًا ، وأدرك أنّ صعودها لا يقدم عليه إلاّ من طلب الموت . فأخبر «الكندى» أن يعفيه ، وأن يطلب فى الجيران إنسانًا يصعدها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ، ودلّهم بعض الناس – آخر الأمر – على أكّار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتّى وقع عليه فلما جاء ونظر إلى النخلة تردّد هو أيضًا ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتّى استخار الله وارتقى النخلة . فلما صار فى أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر وسلمه إلى «الكندى» .

ووقف يتصبّب عرقًا فى انتظار الأجر ، فأخرج «الكندى» «فلسًا» ، وضعه فى يد الأكار ، فنظر فيه مليًا ، ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعًا : «

«فلسًا» بعد هذا الجهد كله ، وهو غنىّ !.. لو كان أعطى درهما على الأقل ، إنه ذو مال !..»

فالتفت إليهم «الكندى» صائحًا :

إننى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرّقه بعقولكم !.. وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى «أشعب» قائلاً :

الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا فى طلب صاحبك الساكن الجديد..

فنظر أشعب إليه شزرًا :

فرخ يمام واحد ، هو «الطباهج» و «الكرداج» وهو كل العشاء ؟!..

ففكّر «الكندى» لحظةً ، ثم قال :

انتظر ، لا تبرح !..

وأشار إلى الأكار الواقف يتميّز غيظًا ، فترضّاه وأغراه وذهب به ، وغبرا مليًّا ، ثم عادا يحملان أرزًا بقشره ، وليس معهما شىء ممّا خلق الله إلاّ ذلك الأرز فلمّا صار «الكندى» إلى بستانه كلّف الأكّار أن يجشّه فى مجشّة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلّفه «الكندى» أن يطحنه على ثوره وفى رحاه ، حتى فرغ من طحنه فكلّفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار ؛ لأنه به أكثر نزلا ، ثم كلّف الأكار أن يخبزه ، ثم طلب إلى «أشعب» وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له فى الجدول الشصوص للسمك . وأن يسكروا «الدرياجة» على صغار السمك كى لا تدخل فى السواقى ، وأن يدخلوا أيديهم فى حجرة الشلالى ، حتى يصيبوا من

السمك شيئًا كبابًا ، على نار الخبز ، تحت الطابق ، فلا يحتاج من الحطب إلى كثير . فمازال «أشعب» منذ ذلك العصر إلى الليل فى كدّ وجوع وانتظار إلى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت «الكندى» أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ طباهجا ، قد نضجت ، فصاح «الكندى» صيحة الظفر :

يا «أشعب» ! .. هلموا إلى عشائى وهنيئًا مريئًا لكم طعامى . فأحضر صاحبك إلى دارى تجدوا الخوان قد نصب ، كأنه إيوان كسرى وعرش هرقل !

جرى «أشعب» إلى صديق له من طرازه يدعى «بنان» فقصّ عليه الأمر . وتوسّل إليه أن يأتى معه إلى دار «الكندى» فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ «أشعب» من وعده : فإذا انتهى العشاء ، وعاين الصديق الدار كان له أن يتعلّل ويتمنّع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن عند «بنان» فى تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضًا . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع «أشعب» ! .. وسارا فى الطريق فأوصاه «أشعب» أن يفهم «الكندى» أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط ..

فالتفت «بنان» إلى صاحبه قائلاً :

قد فهمت دفع الكراء ، وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ ..

فأجاب «أشعب» :

فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاه ، ونشوار العلوفة ، وألا يخرجوا عظمًا ، ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان . وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبلى فى بيته ! ..

أقبل الضيفان على دار «الكندى» فألفياه قد أعدّ الخوان ، وجلس فى انتظارهما يتلمظ ، ويقول :

ومن البلية في الموائد أن يرى
قوم جياع في انتظار القادم

فقعد «أشعب» من الفور أمام الطعام ، وأجلس زميله جواره وهو يقول :

سواء علينا أقدموا أم تأخروا
نواف مع الطباخ ساعة يغرف

وأشار إلى صاحبه «بنان» بعد أن غمزه بكوعه :

لقد انتظرت صاحبي هذا انتظار الآكل للشبع !..

فقال «الكندى» :

انتظرته إذن قليلاً ؟..

فأجاب «بنان» للفور :

نعم ، لقد انتظرنى مقدار ما يأكل إنسان رغيفًا !..

وتناول الخبز . فقال «الكندى» :

لقد انتظرك إذن طويلاً . .

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ، ولم يجيباه بعد ذلك و «أشعب» و «بنان» إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ فى الطيبات ، فما جاءت القصعة فيها الثريدة ، كهيئة الصومعة ، مكللة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ «أشعب» الذى يستقبله ، ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدى صاحب الدار ، ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله «بنان» وحاكاه . فلما أن نظر «الكندى» إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ، والفرخ كله بين يدى «أشعب» وزميله إلاّ قطعة جناح صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها قدّام الضيف الجديد ، واحتسب بها فى سبيل الكرامة والبرّ والضيافة ، وهو يتميّز ويقول ، ليخفى غيظه الكظيم :

قالت الحكماء : «عليكم بشرب الماء على الغداء» ، فلو شرب الناس الماء على الطعام ما أتخموا ، وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء . وربما كان شبعان وهو لا يدرى !..

فقال «بنان» :

شبعان !.. والله نحن إنما نسمع بالشبع سماعًا من أفواه الناس !.. ثم مدّ يده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامسًا :

– تمهّل وتحشّم ، ألاّ يفطن إلينا ويفرّ منا .. أنت لا تعفيه : لأن يطعن طاعن فى الإسلام أهون عليه من أن يطعن فى الرغيف الثانى ؟..

فسحب «بنان» يده ، وهو يهمس فى أذن «أشعب» :

أو يريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبى ؟!

ولحظهما «الكندى» وظنّ أنهما يتساران فى أمر الخبز ويستصغران حجمه . فأمسك برغيف ورطله فى يده وقال :

يقولون إن خبزى صغير !.. فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !..

فبهت «بنان» ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا بالباب قد فتح عليهم ، ودخل جار «الكندى» ، فرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردّوا عليه ، ولم يعرض «الكندى» عليه الطعام ، فاستحيا «أشعب» من الرجل وهو جاره فى السكن ، فما تمالك أن قال له :

سبحان الله !.. لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل !..

فتأدّب الرجل وقال حياءً :

قد والله فعلت !..

فأسرع «الكندى» يقول :

ما بعد القسم بالله شيء ! .

فكتف الرجل بذلك كتفًا لا يستطيع معه قبضًا ولا بسطًا ، وتركه فى مكانه لا يريم . ولو مدّ الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقّة موقفه فتحرّك منصرفًا خجلاً ، فرقّ له «أشعب» وقال له :

أين تريد ؟ .

فقال الرجل :

إلى منزلى أتوضّأ . .

فقال له «أشعب» :

ولماذا لا تتوضّأ هاهنا ؟.. فإن الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من «الكندى» حشمة ، ومنزله منزل إخوانه .

فدخل الرجل فتوضّأ ، «والكندى» ينفخ من الغيظ ، ولحظه «أشعب» فقال له :

هوّن عليك . إنما كل بغيتى أن أسخيك . وأنفى عنك التبخيل ، وسوء الظن !..

فقال «الكندى» :

فهمنا أن تدعو الناس إلى غذائى لتسخينى ، ولكن لا أفهم أن تدعوهم ليخرءوا عندى !..

وعاد الرجل فجلس عن كثب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى «الكندى» قائلاً :

جاءتنى رقعتك اليوم ، وفيها أنك تزيد على أجر الدار خمستين ؛ لأن ابن عمى ومعه ابن له قد نزلا علىّ ضيفين !..

فأجاب «الكندى» على الفور :

نعم ، إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك . وإن كان إطعام السكان فى الليلة الواحدة يجرّ علينا الطمع فى ليال كثيرة . .

فقال الرجل :

ليس مقامهما عندنا إلاّ شهرًا أو نحوه . .

فقال « الكندى » :

إن دارك بثلاثين درهمًا وأنتم ستة ، أى لكل رأس خمسة . فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين ! .

فقال الساكن متعجبًا :

وما يضرّك من مقامهما وثقل أبدانهما على الأرض التى تحمل الجبال ؟.. إن ثقل مئونتهما علىّ أنا دونك . ما هو إذن عذرك لأعرفه ؟..

فترك « الكندى » الأكل ، واتجه إلى ساكنه قائلاً :

عذر واضح كالنهار ، والخصال التى تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدّة المئونة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشى على ظهور السطوح ، والصعود على الدرج . فينقشر الجص وينكسر العتب ، وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال ، تهشّمت الأبواب ، وتقلّعت الرزّات ، فساكن الدار هو المتمتّع بمرافقها ، وهو الذى يبلى جدّتها ، ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وإنه ينسى أن المالك ما أسكن داره إلاّ بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ، فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابًا لا تصلحه إلاّ النفقة الموجهة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترسًا إلاّ سرقه ، ولا سلمًا إلاّ حمله ، وإذا أراد الدقّ فى الهاون ترك الصخرة المجعولة لذلك ، ودقّ على الأجذاع حيث جلس ، تهاونًا وقسوةً وغشًا . . هذا فضلاً عمّا يحدثه من الشغب مع الجيران ، والتعرّض لهم واصطياد طيورهم .

وتعريضنا لشكايتهم . فإذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب بضعة دراهم لإصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب !..

وسكت «الكندى» فجأة ، فقد حانت منه التفاتة إلى الضيفين ، فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام ، وأمعنا هما فى محو أثر الخبز والسمك ، إلاّ «شبوطة» كان قد نجح فى وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبرها ، ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظنّ عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرّد بأطايبها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد «أشعب» عليها ، فلما رأى هذه اليد فى السمكة رأى الموت الأحمر ، والطاعون الجارف ، وأيقن بالشرّ ، وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث «أشعب» حتى قبض على قفا «الشبوطة» ، فانتزع الجانبين جميعًا واكتسح ما على الوجهين ، فلما أكل «أشعب» جميع أطايبها وبقى «الكندى» فى النظارة ، ولم يبق فى يده مما كان يأمله فى تلك السمكة إلاّ الغيظ الشديد ، بينما هو يرى «أشعب» يفرى الفرى ، ويلتهم التهامًا صاح به : حسبك . . لا يقتلك الطعام !..

فأجاب «أشعب» وفمه ممتلىء :

إذا كان الأجل موقوتًا ، فلأن أموت شبعًا أحبّ إلىّ من أن أموت جوعًا !..

وقنط «الكندى» من الأكل مع هذين الرجلين ، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن ، واتفق معه على الزيادة فى الكراء كما طلب ، وشيّعه إلى الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شىء يؤكل ، «وبنان» يتجشأ ، ويقول :

لعن الله «القدرية» . . من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام . وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سآكله !..

فكظم «الكندى» غيظه ، وقال فى نفسه :

تعال غداً فإن وجدت شيئاً فالعن «القدرية» والعن آباءهم وأمهاتهم !..

وجلس الضيفان ، بعد أن غسلا أيديهما ، يتخلّلان من الطعام ، وهما على خير ما يكون الإنسان راحة وهناءً . . وجعل «الكندى» ينظر إلى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشواك ، كأنها جثث القتلى بعد المعركة ، فساورته الهموم ، وتحركت فيه غريزة البخل ، وشعر بالكرب والغمّ ، فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

أسألكما بالله الذى لا شىء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟..

فقالا معاً :

ما نشكّ أنك حين كنت والطعام فى ملكك ، كنت أغنى وأيسر !..

فقال :

فأنا الساعة أقرب إلى الفقر ، أم تلك الساعة ؟..

قالا :

بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر . .

فلم يحتمل الكارثة ، وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب :

آه !.. من ذا الذى يلومنى إذن على ترك دعوة قوم ، قربونى من الفقر . وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب ؟!..

فرأى «أشعب» الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيدة . فأسرع يقول له :

ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجنى الكثير ، ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المئونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد

كراء لدارك الخالية ؟.. أما كنت تقول الساعة : إن الغرم بالغنم ؟!.. فأنت والله في آخر الأمر الغانم الرابح !..

فتفكّر «الكندى» لحظةً وبدا عليه الاقتناع . فاطمأن فى الحال قلبه . وانفرجت أساريره ، وضحك للمرّة الأولى ضحكة الارتياح . . قال :

إذن فادع لى !..

فرفع «أشعب» يديه إلى السماء ، وقال :

منّ الله عليك بصحة الجسم ، وبسطة اليد ، وسعة الصدر ، وكثرة الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرس طحون ، ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن والعافية !.. هذه دعوة مغفول عنها !..

جعل «أشعب» و «بنان» يدلّلان «الكندى» ويفكهانه ولم يشكّا أنه سيدعو إليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن «الكندى» جعل يتغافل ويتناوم ، فلمّح له «أشعب» بما يصبو إليه قائلاً :

إن المجلس والله ليس فيه غناء ولا نبيذ . . فهو كالبيت الخرب !..

فلم يسمع لكلامه صدى ، وطال تغافل «الكندى» فلم يجد «أشعب» بدًّا من التصريح ، فأقبل عليه يقول :

اجعلها مرّة ليس لها أخت ، ودعوة لن تعود إلى مثلها ، واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ !.

ولما بلغ منه ومنهما المجهود ، ورأى «الكندى» أنهما مقيمان مصرّان ، غير منصرفين قَبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب . ووضعها بين يدى «أشعب» وقال له :

الآن غنّ وأطربنى والأمر لله !..

فانقضّ «أشعب» و «بنان» على الكئوس . وشرب «بنان» شرب العطشان

الصادى ، وأفرغ «أشعب» كأسه فى جوفه ، وهو يرفع عقيرته منشداً :

امدح الكأس ومن أبدعها واهج قوماً قتلونا بالعطش

إنما الكأس ربيع باكر فإذا ما لم نذقها لم نعش

فطرب «الكندى» للصوت ، ولكنه قال كالمخاطب نفسه :

والله ما قتلوكم بالعطش ، ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشره . .

وملأ كاسه وقال :

غنّ أيها المغنّى !..

فملأ «أشعب» كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلنّ بقول اللائم اللاحى

واشرب على الورد من مشمولة الراح

كأسًا إذا انحدرت فى حلق شاربها

أغناك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح «الكندى» من الطرب صيحة مدوّية دهت الضيفين . وأفرغ فى حلقه كأسًا أخرى وهو يقول :

اسقنى حتّى ترانى مائلا

وترى عمران دينى قد خرب

وسكر «الكندى» ، وأمعن «أشعب» فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الدنّ من لطف

وأستبيح دمًا من غير مجروح

حتّى انثنيت ولى روحان فى جسدى

والدنّ مطرح . جسم بلا روح

فطرب «الكندى» ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ، فشقّ قميصه ، وقال

«لأشعب» :

افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسي . . .

فنظر إليه «أشعب» دهشًا . . فصاح «الكندى» :

ويلك ، شقّ أيضًا أنت قميصك !..

فقال أشعب جزعًا :

– أصلحك الله !.. أتريد أن أشقّه وليس لى غيره !..

فقال «الكندى» : «شقّه وأنا أكسوك غداً» .

فأجاب «أشعب» : «فأنا إذن أشقّه غداً» .

فقال «الكندى» : «وأنا ماذا أصنع بشقّك غدًا ؟» .

فقال «أشعب»: «وأنا ماذا أرجو من شقّه الساعة ؟. » .

ولبثا فى ذلك وقتًا يتساومان ، و«بنان» ينظر إليهما ويعجب وأخيرًا صاح فى «الكندى» :

– ما كل هذا ؟.. إنى لم أسمع قط بإنسان يحاور ويناظر فى الوقت الذى إنما يشقّ فيه القميص من غلبة الطرب !.. إذا كنت قد طربت الآن حقًّا ، فاكسه الآن القميص !..

وهزّت «الكندى» نشوة الخمر ونخوة الوهم ، فى غفلة من غريزته النائمة . فقام يتعثّر إلى قميص جديد عنده ، فأتى به وكساه «أشعب» . فلما صار القميص على «أشعب» ، خاف البدوات . وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحيّن الفرص ، وأوهم «الكندى» أنه ذاهب لقضاء حاجة ، ثم مضى توًّا إلى منزله بالقميص فجعله «برشكانا» لامرأته . .

ومضى من الليل أكثره وركب النوم «الكندى» و«بنان» ، وهما ما برحا فى انتظار عودة المطرب . فانطرح «بنان» على الأرض جاعلاً فراشه البساط ومرفقته

يده ، ولم يكن فى المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد «الكندى» إكرام ضيفه فاخذ المخدة فرمى بها إلى «بنان» فأباها وردّها عليه . وأبى «الكندى» ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأدّب ، ويتقارضان المجاملة فى لسان متعلثم وجذع متمايل ، إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

سبحان الله !.. كيف يكون أن تتوسّد مرفقك ، وعندى فضل مخدة ؟!..

فأذعن «بنان» وأخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يغرق «بنان» فى النوم ، ليبس الفراش ورداءة الموضع . وظن «الكندى» أن الضيف قد نام ، فجاء قليلاً قليلاً حتى سلّ المخدّة من تحت رأسه . فلما رآه «بنان» قد مضى بها ضحك وقال :

قد كنت عن هذا غنيًّا !.. فارتبك «الكندى» وقال :

«إنما جئت لأسوّى رأسك» فقال «بنان» :

«إنى لم أكلمك حتى ولّيْتَ بالمخدة . .»

فأجاب «الكندى» : «كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة فى يدى ، نسيت ما جئت له ، والنبيذ ، ما علمت والله ، يذهب بالحفظ أجمع !..» .

وأراد «الكندى» أن يردّ عليه المخدّة . فأبى «بنان» ، فألحّ وألح ، وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد ، فلم يخلّصهما منها إلاّ غلبة النوم الثقيل فى الهزيع الأخير من الليل . فانطرحا ، كأنهما حجران والمخدّة عن كثب منهما منطرحة منفردةً وحيدةً .

وطلع النهار وأحسّ «بنان» ضرب الشمس فى وجهه ، فنهض ونظر حوله مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى «الكندى» ممدّداً يغطّ على مقربة منه ، فأسرع إلى نعله فحمله فى يديه ، وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ . .

وعلا النهار . . وأقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجرة ، فصحا

«الكندى» ، وفرك عينيه وألقى نظرةً على المكان ، فهم منها كلّ شىء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحةً منكرةً ووضع نعله فى قدميه ، وانطلق إلى مسكن «أشعب» فدقّ عليه الباب ، فخرج له فقال له :

أين الساكن ؟..

– لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه . .

– وأين القميص ؟..

– إنك قد وهبتنى إيّاه . .

فقال «الكندى» فى رفق مصطنع :

أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا تجوز ؟.. وبعد فإنى أكره ألا يكون لى حمد ولا شكر . وأن يوجه الناس هذا منى على السكر . فرد علىّ القميص حتّى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس . . فإنى لا أحب أن يذهب شىء من مالى باطلاً . .

فلم يتحرك «أشعب» لهذا القول . وعلم «الكندى» أن مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هذه «الحجج» فأقبل عليه يقول متلطفًا :

يا «أشعب» ، إن الناس يمزحون ويلعبون ، ولا يؤاخذون بشىء فرد القميص عافاك الله !..

فقال «أشعب» مبتسماً :

«إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتّى جئت به لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه» . .

فقال «الكندى» على الفور :

نعم آخذه . . لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك . . ومد ذراعه . فقال

«أشعب» :

«إنه عند الصباغ»

فقال «الكندى» :

«هاته» !...

ليس أنا أسلمته إليه ..

فعلم «الكندى» أنه قد وقع . وأن لا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء .

فقال فى زفرة حارة من كبد محروقة :

بأبى وأمى . صدق رسول الله حيث يقول :

«جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه . فكان مفتاحه : السكر !..» .

(أشعب أمير الطفيليين ١٩٣٨)

# الفهرس

صفحة

حماری ومنظری ........................................ ٥
حماری والنفاق ........................................ ١٥
لقائی بحماری ........................................ ٢١
موقف حرج ........................................ ٣٣
أرید هدم نفسی ........................................ ٤١
بیتنا الذی لم یتم ........................................ ٤٧
فی المحكمة ........................................ ٥٧
الطاجن وصل ........................................ ٧٣
عوالم الفرح ........................................ ٨٣
الهدهد الیتیم ........................................ ٩٩
الطفیلی والبخیل ........................................ ١٢١

| رقم الإيداع | ١٩٨٢/٣٢٨٥ |
| --- | --- |
| الترقيم الدولى ٣-٠٠٩١-٠٢-٩٧٧ | ISBN |

١/٨٢/١٠٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

م
٣٠

١٠/٠٧٢٥٠٤

